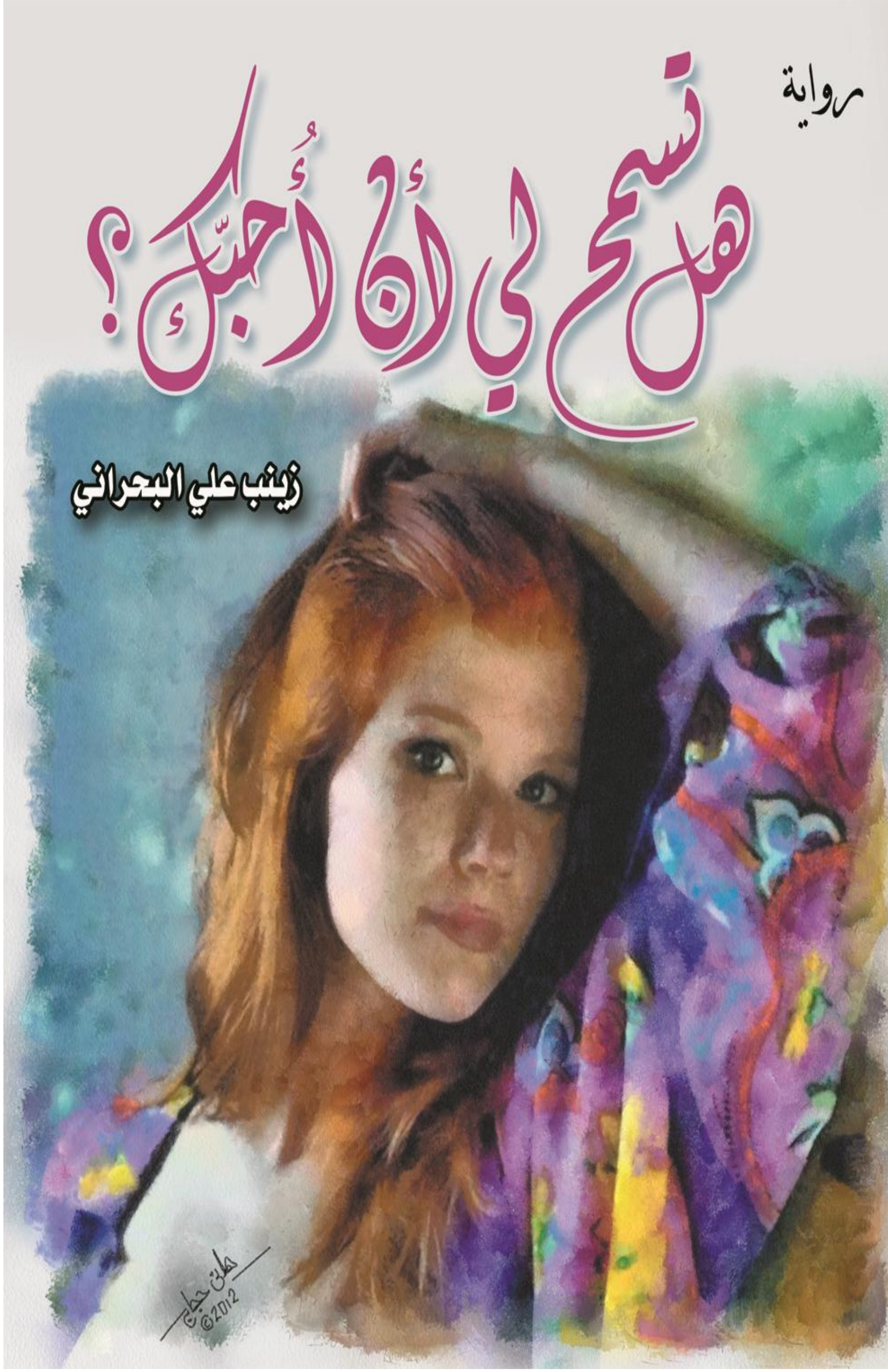

رواية
هل تسمح لي أن أُحبّك؟
زينب علي البحراني
©2012

هل تسمح لي أن أحبَّك؟

زينب علي البحراني

هل تسمح لي أن أحبك (قصة طويلة)
زينب علي البحراني

لوحة الغلاف
للفنان التشكيلي هاني حجاج

تصميم الغلاف
مصطفى الجزار

مدخل

"آه، نعم! وهل يُمكنها حقا أن تخبره؟ فهل تقول له:
المُشكلة هي أنني واقعةٌ في حبّك حتى أذني، فهل يُمكنك
أن تحبني أيضا لكي أشعُر بالتحسُّن؟"

رواية/ عندما ابتسم الليل

لـ : جسيكا هارت

تنويه

هذا النّص هو "قصّة طويلة" وليس "رواية"
لذا يُرجى من ذوي الأمزجة النّمطيّة أخذ الحيطة والحذر

كما أن...

كل ما يرد على ألسنة شخصيات هذه الرواية لا يُمثل بالضرورة وجهات نظر كاتبتها
بل يمثل وجهة نظر "الشخصية الروائية" التي تفوهت بتلك الآراء.

إهداء عام

إلى قصيدة: "هل تسمحين لي أن أُحبَّك؟"

للرَّاحل الخالد/ نزار قبَّاني.

إهداء خاص

إلى الصديقة التي مازالت تعتبر شخبطتي على جدران الكون أمرًا يستحق انبهار الجميع

"سارة بنت شُكري السنان"

قبل البداية

قد يكون الأديب العربي هو الأديب الوحيد المضطر لتبرير نص من نصوصه، لأن حالات الاحتقان المُجتمعي والسياسي والإنساني التي نعيشها جعلت من المواطن العربي مخلوقا مُتحفزا لمهاجمة كل من لا يتفقون مع رأي من آرائه، بغض النظر عن صحة هذا الرأي أو عدمها، ما يجعل من كل نص مكتوب مشروع ذنب أو جريمة يُسقط عليها المُجتمع كل رغبته في الانتقام من دوافع تعاسته الشخصية.

معظم الأدباء العرب يحملون على كواهل قلوبهم أقلامًا مثخنة بالأحزان، وأصحاب الأقلام المثخنة بالأحزان لا يهمهم إنجاز نصوص "عبقرية"، أو أعمالاً "لا يشق لها غبار" في عالم الأدب الروائي، بل كل ما يعنيهم هو إطلاق

سراح بعض أحلامهم الصغيرة على الورق ليستريحوا من عبء تضخمها في صدورهم، محولينها بلغتهم البنفسجية الشهية إلى عواطف قادرة على إسعاد قرائها وملء أرواحهم بأحاسيس لذيذة لا يفهمها المعقدين نفسيًا ولا المتربصين للهجوم.

لأجل أحلامي، ولأجل قرائي المفعمين بمثل تلك الأحلام فقط أطلقت هذا النص، أما ما عداهم ممن يطالبون كل كاتب أو مؤلف بما يشبه الاعتذار أو الشعور بالذنب وتأنيب الضمير على كل ما يكتُب لأنهم يرون غير ما يرى؛ فليس لأذواقهم العويصة هنا مكان. هذه ليست "رواية رائعة" ترضي أذواق مُحترفي الكتابة، بل مجرد كلام في الحُب الذي فقدناه وفقدنا أنفسنا بفقده، مجرد حكاية يستطيع أن يفهمها القارئ البسيط الذي أعتبره صديقي الحقيقي، ورهاني الأكبر.

(١)

الحُبّ لا يُتقن فن قرعِ أبواب القلب على استحياء، أو الوقوف على أعتابه وقفة استئذانٍ مُترقِّب. يقود مركبته العمياء بطيشٍ حيثما يشاء، دون رخصة سواقة، أو أوراق إثبات هويَّة، أو حتّى شهادة ميلاد. ماسّاً بعصاه السّحريَّة أرض الرُّوحِ الرَّاكدة ليوقظ دهشتها غير عابئ بتاريخ الجدب، أو حاضر الخراب. يخطفكَ فجأةً قبل أن تلتقط أنفاسَك؛ موقدًا مهرجانات الفرح المُموسقة في الشَّرايين بلا موعد، وماحيًا؛ بضربةٍ واحدة؛ كُلّ ما كان من ألمٍ سبق التّقويم الذي بدأ تاريخه بأولى ساعات احتلاله إيَّاك، وإضرام النَّار في خريطة الأحاسيس التي تبين الحدود الفاصلة بين شكّك ويقينك؛ وواقعك وأحلامك.

هل وقعتُم من قبل في الحُب؟ الصّادقون – وهُم قلائل– سيقولون: "لا"، والواهمون سينخرطون في حكاياتٍ مطوّلةٍ

عن علاقاتهم الرَّماديَّة التي يسمّونها حُباً؛ والتي فشلت في كُلّ مرّةٍ لأنّها لم تكُن كذلك، بينما سيعترف بعض التّعساء أنّهم مازالوا بانتظار تلك المُعجزة، ويؤكّد آخرون أنَّ طول انتظارهم العقيم سلبهم لذَّة الإيمان والأمل بحقيقة وجودها. أمّا أنا؛ فيمكنني أن أعلن اليوم وبكُلِّ صراحةٍ أنّ الحُب قد وجدني أخيرًا، واصطفاني لأكون من رعايا مملكته شاطبًا كلّ سنيّ العجاف بضربةٍ واحدة. أكاد أسمع الواهمين يُقهقهون ناثرين الكلمات من بين رُذاذ أفواههم: "وما أدراكِ أنَّها ليست محض أضغاث أوهام؟"، سأجيبُ أنَّ ما يُدريني هو أنَّني كُنتُ مثلكُم جميعًا، قضيتُ أعوامًا بانتظار تلك المُعجزة، ثمّ عشتُ زمنًا قصيرًا في وهم الاستحواذ عليها، وأخيرًا؛ تخلّيت عن إيماني بها مُدثِّرةً قلبي بثوب يأسه المُريح، لكنّني بعد تجربة زواجٍ عمرها خمس سنواتٍ من الضَّرب، والإهانات، والإذلال، والتّرهيب، وبعد تجربة طلاقٍ عمرها سنتان، وتجربة أمومةٍ عمرها ستَّة أعوام، وتجربة انطفاء حلمٍ عمرها سبعة أعوام رماديَّة، بلا لون، ولا طعم، ولا رائحة، ولا بارقة أملٍ مُنعشة،

يُمكنني القول أنَّ المرأة التي في داخلي صارت عجوزًا بما فيه الكفاية على توهُّم عاطفةٍ ما. لا ألومكم إن لم تُصدِّقوا؛ فأنا نفسي لم أحلم طوال تلك السِّنين بمُصادفة أرجوحة الفرح تلك ولو لخمسٍ دقائق. ومنذ ألصقتني حقيقة زواجي بمرآة الواقع المهشَّمة كفرتُ بالحُب، وأدركتُ أننا – نحنُ الإناث– نُخدع طويلاً بحكاية فارس الأحلام، في زمنٍ صار يعجُّ بكنَّاسي الأحلام.

متى انفجرت قُنبُلة الحُبّ في القلب؟ أذكُرُ ذلك جيّدًا، باليوم، بالتّاريخ، بالسَّاعة، باللحظة. أذكُرها لأنّها شطرت تاريخي إلى نصفين، أوَّلهما ما قبل ميلاد.. الحُب، والثّاني بعد ميلاد... الحُب. أذكُرُ جيّدًا أنَّنا كُنَّا على مائدة العشاء، والدتي؛ وسعيد، والطِّفلة، وأنا. قُلتُ لأخي سعيد مُنتهزةً فُرصة وجوده بيننا ليُنقذني من ورطتي قبل عودته إلى إنجلترا:

- أتعرفُ مكانًا يبيع لوحاتٍ فنيَّة أصليَّة بسعرٍ معقول؟

- لماذا؟

- زفاف سُعاد في نهاية هذا الأسبوع، وقد طلبت أن تكون هديَّتها لوحةً تشكيليَّة أصليَّة تُلائم غرفة الجلوس في شقَّتها الجديدة.

كُنتُ أتحدَّث بنبرةٍ مُحايدةٍ مُخفيةً سرَّ الغليان الذي في صدري. تلك الوقحة سُعاد؛ ابنة عمِّنا المُدلّلة؛ تتقافز بقائمة طلبات ما تُسمّيه "قفصها الذّهبي" دون أن تُراعي مشاعر عانس، أو أرملة، أو حتّى مُطلّقةٍ تُحاول أن تنسى تعاستها مثلي. لا أدري لمَ كُلّ هذه الضّجة والخسائر على ارتباطٍ محكوم بالفشل حتّى وإن بقيا في البيت ذاته إلى الممات.. يا للعذراوات السذّج!

أجاب سعيد:

- بنت حلال!

قاطعتُه مُعلّقة بخُبث:

- هذا لا شكَّ فيه!!

- أعني أنّ طلبك جاء في وقته. اثنان من أصدقائي سيُدشّنان معرضًا فنيًا مُشتركًا هذا المساء، لنذهب معًا وتختارين اللوحة التي تُعجبك. في السَّابعة تمامًا كوني مُستعدّة، خمس دقائق بعد السَّابعة ولن تجديني هُنا.

في السَّابعة والنِّصف كُنتُ أشتم التَّكعيبيَّة، والسُّورياليَّة، وكُل ما يمت بصله للوحات التي تحتاج الواحدة منها عشر سنواتٍ لفك طلاسمها المُستعصية على "الجهلة" أمثالي. التفت إلى سعيد هامسة:

- ألم تجد طريقةً أُخرى لتعذيبي غير هذه؟

نظر إليّ نظرةً مُتسائلةً، فأكملت:

– ما هذه الشّخبطة؟!

قال باستعلاء له نكهة المُزاح:

– شخبطة؟! طبعًا؛ فهذه الأماكن ليست لمُستوى أمثالك.

– شُكرًا. يسرّني التّنازُل عنها للعباقرة من أمثالك إلى الأبد مُقابل لوحةٍ واحدةٍ يمكن لبصري تهجّيها دون أن أصاب بالسّكتة الدّماغيّة.

– دعيني أفكّر قليلاً.

ثمّ بدا وكأنّ شيئًا أو شخصًا ورائي قد جذب اهتمامه، فرفع كفّه مُلوّحًا:

- هاي.. يوسف.

التفت إليّ قائلاً:

- يوسف لديه طلبكِ حتمًا، فهو فنان مُخلص لمذهبه الكلاسيكي حتى آخر قطرة من ألوانه.

استدرتُ ليرتطم بصري بالعينين أولاً، حيث بئرين واسعتين من تساؤل، صُندوقين من دهشةٍ شاسعةٍ وغموضٍ ممزوجٍ ببراءةٍ مُريحة، وشيء يُشبه الضيّاع المُطلق، يُشبه طفولة منسيّة، وحُزن بلا قرار. ثم اكتشفتُ الشعر البُني، القميص الأزرق، والحذاء الأسود الرياضي.

اقترب منه سعيد بثلاث خطوات واسعة ثُم قال:

- يوسف؛ إنَّ أختي تُريدُ لوحةً كلاسيكيَّة، هل تستطيع إيجاد واحدة لها من بين لوحاتك.

ردَّ ببرود:

– لا مُشكلة، يُمكنها القدوم إلى المرسم واختيار ما تشاء.

فكّرتُ باستغراب: "لا مُشكلة؟!! من قال أصلاً أنّ هُناك مُشكلة كي تحتاج إلى حل؟ لماذا يتحدَّث بهذه الطّريقة وكأنّنا مُتسوِّلون نرجوه إحسانًا؟!"

بدأ يتحسس جيوبه ثمّ يعتصرها وهو يعتذر:

– آسف، نسيتُ بطاقات العمل.

علَّق سعيد:

– لا بأس؛ سأدوِّن لها عنوان معرضك حين نعود إلى البيت. توصَّ بطلبها جيّدًا يا صديق، فأنا سأسافر بعد غد، وغدًا لن تسمح لي مشاغلي باصطحابها.

- لا مُشكلة.

لا مُشكلة! مرّةً ثانية؟! ألم يتعلّم طوال فترة نُطقه غير هذه الجُملةِ الباردة؟! ألا يحفظ كبقيّة خلق الله جُملاً من نوعِ: بانتظار تشريفكُم..على الرّحب والسّعة.. تكرم عينك.. على رأسي.. اطمئن.. لا تقلق.. ولا يهمك.. أيّ شيء لا يمتّ بصلةٍ للمُشكلة؟! خطر لي هذا أثناء خروجنا من المعرض، ولم أستطِع طرد العينين المُترعتين بالدّهشة من خاطري إلا حين قطع صوت سعيد حبل شرودي سائلاً:

- ماذا بك؟ مذ خرجنا من المعرض لم تنطقي بكلمة!

- لا شيء. أشعُر بالنُّعاس.

- لا..لا..لا. أنا لا أحبّ أن ينام الأشخاص الذين يُرافقونني في السّيَّارة. رُبَّما يُنعشك صوت المذياع.

بعد عبثٍ عشوائي بزرّ المذياع؛ استقرّ أخيرًا على صوت المُطرب الكويتي عبد القادر هدهود صادحًا بهذه الكلمات:

"لمّا صدفة مرّة شفتك

تكلّمنا . . وسمعتك

مشيت وقلبي ويّاك . . ويّاك"

سألني سعيد:

- **هل تروقك هذه الأغنية، أم أغيّر المحطّة.**

عندها وجدتُ نفسي أجيب دون أن أشعُر:

- **لا مُشكِلة.**

(٢)

لم أعِ أنني أطلتُ الوقوف على باب المعرض الزجاجي إلا حين احتجبت الرؤية من خلاله بفعل ضباب أنفاسي الملاصقة له، ولم يبدُ أنّ أحدًا في الدّاخِل رغم الإضاءة الساطعة؛ لكنني جرّبتُ دفع الباب برفقٍ على أيّة حال، وانزلقتُ من الأجواء الباردة إلى دفءٍ غير متوقّع. واجه أنفي رائحةٌ تجمع بين الخشب، والطلاء، وعطرٌ غير قابل للترجمة أو التفسير، بينما كان بصري يحبو على أثاث الحجرة الفسيحة، ولوحاتها التي عُلّق عددٌ كبيرٌ منها على الجُدران، وتكدّس أكثرها على الأرض وعلى طاولةٍ كبيرة، وعلى مقاعد خشبيّة مُتناثرة، وفي كلّ زاويةٍ تقريبًا. أسرتني لوحةٌ يطلّ منها وجه امرأةٍ بارعة الجمال تلتفت إلى ناظريها بدلال، فارتطمت قدمي بلوحةٍ كبيرةٍ أخرى تستند إلى ساق الطاولة ، ليدوي صوت ارتطامها على الأرضية الخشبية كفضيحةٍ مجنونة. وسرعان ما رأيت صاحب الشعر البني والعينين الواسعتين يُطلُّ من فتحة سقفيَّة في أقصى

الحجرة، وعلى الفور كانت خطواته تنزل درجات السلم الملون الموصل إلى الأرض بسُرعة ورشاقة.

– هل أنتِ على ما يُرام؟

قال باهتمام، بينما كان يعتصرني شعورٌ بالخزي وأنا أقف أمامه كطفلٍ ضبطته أمّه مُتلبسًا بكسر تحفةٍ ثمينة، فقلتُ بارتباك:

– أنا آسفة.

– لا مُشكلة.

ملأني ردّه الجاهز بـ "لا مشكلته" الباهتة شعورًا مُضاعفاً بالذنب. قلتُ في مُحاولةٍ لتبرير موقفي:

– كُنتُ شاردةً مع هذه اللوحة، فلم أنتبه لخطواتي وأنا أقترب من الأخرى.

– بورتريه النجمة "أنجيلينا جولي"؟ هل وقع عليها اختيارك؟

– لا، لقد جئت لأجل لوحةٍ تصلح لحجرة جلوسٍ عائليّة، أو غُرفة طعام.

– مفهوم.. مفهوم.

والتفت إلى كومة اللوحات المكدسة فوق الطاولة الخشبيّة الكبيرة في منتصف الحجرة، ليخرج من بينها لوحةً تصوّر سلّة يُزاحم فيها العنب ثمار السفرجل على طبقٍ معدني فوق طاولةٍ لم تخلُ هي الأخرى من الخوخِ والتين والجوز، وسأل:

– ما رأيُك بهذه؟

– ملائمة تماماً

– هذا تقليدٌ متقن للوحة رسمها الفنان الهولندي "بالتزار فاندراست"، واسمها "سلَّة فواكه".

– رائعة. كم ثمنها؟

– لا شيء.. كُرمى لصداقتي مع سعيد.

قلت بحرارة:

– هذا غيرُ ممكن.. يجب أن تقترح ثمنًا لها. حقك.

ردَّ ببرود:

– لا شيء اسمه "غيرُ ممكن".. ولا شيء اسمه "يجب". هل تعرفين سومرست موم؟

لم أنبس بحرف أمام مُفاجأة السؤال، فاسترسل مُكملاً:

– سومرست موم روائي إنجليزي مشهور، قال مرّةً على صفحات إحدى رواياته أنَّ "الوجوب لا وجود له"، وأنا أؤمن بذلك، لهذا لا أرتاح لسماع كلمة "يجب".

للمرّة الأولى أشعُر أنّ مقدرتي على الكلام قد تبخّرت تمامًا دون أن أفهم السّبب.أردتُ أن أنقذ نفسي بقول أي شيء يرفع إحساسي بالضآلة والتقزم أمامه، فوجدتُ نفسي أقول دون تفكير:

– آنا آسفة.

– لا مشكلة.. هل تريدين شيئًا آخر؟

– أشكُرك.

وشعرتُ أنني قد صرت خارج المعرض بالفعل بينما كان يلف اللوحة بسرعة وصمت. وحين جلست خلف المقود في سيَّارتي كانت أطرافي باردة، وقلبي يدقّ بين جُدران جمجمتي بجنون.

(٣)

مرَّ يومٌ ويومان وثلاثة؛ ووجهه وصوته يتوغلان في ذاكرة الأحاسيس ساعةً بعد ساعة. إحساسٌ غيرُ مفهوم. استعمارٌ بلا موعد. شيء يجمع بين القوّة الغامرة والشعور بالوهن الشامل. أمطر الفضول إزاء كلّ ما لا أعرفه عنه دُفعة واحدة بألف سؤال. ما اسمه الكامل؟ أين يُقيم؟ من أين عرفه أخي؟ متى تعرّف إليه؟ هل هو متزوج؟ كم عمره على وجه التحديد؟ كُنتُ أريد أن أراه بأيَّة حُجَّة، وأن أحرص هذه المرَّة على أن لا أبدو غبيَّة، أو مرتبكة، أو مثيرةً للشفقة. ولم أستطع غير أن أستجمع شتات شجاعتي وغنائم بحثي في تاريخ "أنجيلينا جولي" و "سومرست موم"؛ وأذهب إلى هُناك مرَّة ثانية.

كان مُنخفض الرأس يعبث بآخر أدراج مكتبه الخشبي لحظة دخولي. التفت إليَّ بنظرةٍ مُتسائلةٍ حين ألقيتُ التحيَّة؛ فقلت:

- جئتُ هذه المرَّة لأجل لوحة "أنجيلينا جولي".

ردَّ بخمول وهو ينهض من على مقعده:

- حسنٌ؛ لا مُشكلة.

قلتُ في نفسي وأنا أتبعه بهدوء:

- اللعنة.. متى سيشفى من هذه العُقدة التي تملؤني إحباطًا كلَّما نطق بها. لماذا لم يُرحِّب بسخاء ويُحاول إقناعي بشراء المزيد من اللوحات كما يفعل الباعة في كُلِّ مكان؟

ملأني صمته الجليدي أثناء لفه اللوحة هلعًا من ضياع الفرصة في تبادل حديثٍ أطول للمرَّة الثانية، فسألتُ بصوتٍ تغلِّفه البراءة:

- هل تعرف سعيد منذ زمنٍ بعيد؟

– منذ عامين تقريبًا.

– لم يُحدِّثنا عنك!

لم يتفوَّه بحرف. جلَدَني شعورٌ بالسُّخف والدونيَّة والتفاهة، وودِدتُ لو أنني قلتُ شيئًا غير ما قلت. أي شيء لا يسمح بانقطاع الحديث بيننا. التفت إلى لوحاته المُعلَّقة وتمتمت:

– لوحاتك جميلة.

– نصفها لتلاميذي. أقدِّم هنا دروسًا في الرّسم مساء كلِّ اثنين وأربعاء، وآخذ لوحةً مقابل كلِّ خمس حصص.

– هل ترسم منذ زمنٍ طويل؟

– ثلاثة عشر عامًا.

– احترفته في الجامعة؟

– لا؛ في شوارع فرنسا.

– زُرتَ فرنسا؟

– بل احتللتها. وكان أوَّل لقاء لي بسعيد في أحد شوارع مدينة "نيس".

تضاحكتُ برفق قبل أن أسأل:

– هل كُنت تعمل مدرِّسًا للرَّسمِ هناك؟

أجاب وهو يُحاول إشعال سيجارة غولواز:

– لا، في البداية كُنتُ مُتسوّلاً، فغاسلاً للصُّحون في فندقٍ حقير، ثمّ عاملاً في مصنعٍ لتصدير اللحوم

المُجمَّدة، وأخيرًا نادلاً في مطعمٍ من الدرجة الرَّابعة.

تضاحكتُ لحظة بعشوائيَّة قبل أن أعلَّق دون طول تفكير:

– يبدو أنَّك قضيت أوقاتًا ممتعة هُناك!

رمقني بنظرةٍ فيها ومضة تهكُّمٍ وهو يقول:

– الغربة مُمتعة للسيَّاح، وأنا لم أكُن سائحًا هُناك.

ثمّ بتر الحوار وهو يضع اللوحة الملفوفة في كيسٍ بلاستيكي كبير سائلاً ببرودٍ قاطعٍ كحد السكين:

– هل تريدين شيئًا آخر؟

(٤)

نعم، أريدُ شيئًا آخر. أريدُ أن أجلس معه أطول، وأن أعرف عنه أكثر، وأن أبقى معه إلى الأبد، لكنني لا أستطيع الاعتراف بذلك. لا أدري ما الذي حدث لي فجأة وصيَّرني بكلّ هذا الضعف، والهشاشة، والدهشة، والسَّعادة في الوقت ذاته. لم يحدُث أنني شعرتُ بشيء كهذا من قبل. أو ربَّما شعرتُ به أيَّامًا خاطفةً قبل أن أبلغ عامي الثامن عشر من العمر، ثمَّ لم يُعاود زيارتي بعدها. حتى تلك التفاصيل العاطفيَّة النّمطيّة التي كانت بيني وبين زوجي أثناء أيَّام الخطوبة لم تكُن حُبًا، بل كانت مُجرَّد علاقةٍ بقرار. وكانت الكلمات والزيارات والنزهات كلّها ستتكرَّر بينه وبين أيّ امرأةٍ ثانية، وبيني وبين أي رجُلٍ آخر، مثلما تتكرر يوميًا بين كُلّ خاطبٍ ومخطوبةٍ بقرار عائلي رسمي يتوهَّمان أنَّ ما بينهما حُبًا، أو يدَّعيان ذلك. لكنّ ما يحدُثُ لي هذه المرَّة أشبه بسحر، أقرب إلى مُعجزة. أكبر من أن يكون

وهمًا، وأبعد من أن يكون واقعًا، وأجمل من أجملِ الأحلام.

لا ألومكم إن ظننتم بعقلي الظنون أيّها العاديُّون، الملعونون من رحمة الإحساس بالحب. يا من لا تعلمون أن الحكاية ليست حكاية عمر، أو تجربة، أو مجتمع، أو أي شيء. وأنّ هذا الإحساس يأتي فجأة من حيث لا يُمكن التنبؤ به، ينزل على القلب كقضاء وقدرٍ لا يُرد. يقتحم بغرابة ويحتلُّ الكائن البشري من الرأس إلى القدم دون أن يشعر، أو يقاوم، أو حتى يرغب بالمقاومة، أو يهرب، أو يرغب حتى بالهرب.. فجأة يصير خفيفًا، مُحلقًا، بذاكرةٍ طفوليَّةٍ ناصعة، ومشاعر شفافة، وقلب لا يعرف إلا الغفران. لأنَّ كم السَّعادة الذي يملأ روحه ويفيض عنها يجعله ينظر إلى العالم البائس من حوله بملوكيَّة، ويدرك أنَّ رعونة الناس وأحقادهم كلّها كان بوسعها أن تنطفئ لو أنَّ هذا الشعور الذي اصطفاه من بينهم جميعًا قد تصدَّق عليهم ببركاته.

في اليوم التّالي كنتُ أبحث بين الثياب عن شيء يستطيعُ التشبّث بذاكرته بعد أن أُغادر. للمرة الأولى منذ سنين أبحث بين الثياب طويلاً، وللمرة الأولى أشعر بالخجل من نفسي، وأرى أنني أمام المرآة أسمن مما يجب، وأن وجهي باهت أكثر مما يجب، والهالات تحت عيني أغمق مما يجب، باختصار؛ أنا أكبر كثيرًا مما يجب. اللعنة! كيف سيلتفتُ إلى زكيبة الشيخوخة المُبكّرة هذه؟ قلتُ لنفسي أمام المرآة بحُنق:

- إذا فطن لي دُبٌّ قُطبيٌ أعرج فسأكون لله من الشَّاكِرات!

هذه المرَّة لم يكُن لوحده. كان ثمّة فتاةٌ عشرينيَّة بسروال "جينز" لا يتجاوز الرّكبتين وقميصٍ بلا أكمام تنصت إلى حديثه عن لوحةٍ بين يديها باهتمام يؤكّده صوتها المُخمليّ كلَّ ثوانٍ بكلمة: "أوكاي". اكتشف وجودي هو أوَّلاً لأواجه

نظرته المُتسائِلة، عندها قالت الفتاة وهي تُسند اللوحة على جدار مكتبه الخشبي:

- **"أوكاي" مسيو يوسف، "نكست كلاس" نُكمل كلامنا. باااااي.**

قلت في نفسي وأنا أتابع قرعات كعب حذائها الذي يُغادر المعرض بغنج:

- **"نكست كلاس" هه؟! نكّسوا مخّك في نار جهنّم إن شاء الله.**

سمعتُ صوته يسألني بهدوء:

- **لوحةٌ ثالثة؟**

– لا. الحقيقة أنني.. أريد التسجيل في دروس الرَّسم.

– لا مُشكلة. مُنذ متى بدأتِ الرَّسم؟

– هذا ما أودُّ الاعتراف به. أنا لا أحسن الرّسم مُطلقًا، لكنني... مولعةٌ به.

– أيضًا لا مُشكلة. الشغف هو الشرط الأساسي في التعلُّم؛ لأنّه الضمان الوحيد للاستمرار والنّجاح. نحنُ هُنا لا نصنع نُسخًا مُتحرّكة من "دافنشي" أو "كوربيه"، وإنّما نُرشد هواة الرّسم للتعبير عن ذواتهم بالألوان. عمومًا؛ يُمكنك العودة بعد أسبوعٍ تمامًا، فعلى رأس الشهر الجديد ستبدأ دورة المُستجدِّين.

و خشية أن يصفع كرامتي بسؤالي عمّا إذا كُنتُ أحتاجُ شيئًا آخر، رسمتُ ابتسامة امتنانٍ صادقةٍ على وجهي ثم قلت:

- **أشكُرك.. إلى اللقاء.**

(٥)

"الحب كالموت يغير كل شيء". هكذا قال "جبران خليل جبران" كما قرأت ذات صدفة في جريدة يوميَّة. لم أكن أعي يومها أن ما قاله جبران أشبه بحقيقة ينقشها القدر على صحائف حياة أولئك الذين يزلزل الحب أعمارهم، لينسفها، ويبدأ كتابتها من جديد وفق ذوقه وهواه، ويحوِّل أبطالها إلى مخلوقات نقيَّة جديدة تستحق دور البطولة المُطلقة.

للمرة الأولى منذ سنوات طويلة وددت أن أكون جميلة، أو بكلمات أدق؛ تذكرت أنني إنسانة، وأنني امرأة، وأنني أستحق الحياة، وأستحق أشياء أخرى كثيرة تراكم جليد النسيان على شعوري تجاهها بالاهتمام. وكان أول قرارات تلك الثورة السريَّة التي انفجرت في حياتي أن أسرع إلى أقرب نادٍ رياضي للنساء حاملة أربعة عشر كيلوجراما تزاحم وزني بطموح يطمع في ذوبانها قبل بداية دروس الرَّسم.

وهناك بدأت رحلة تعذيب أحبطت طموحي منذ اليوم الأوَّل، وتحديدًا منذ واجهت المُدرِّبة التي يصعُبُ على من يراها للمرَّة الأولى اكتشاف أنها امرأة. فاللباس الشبيه بألبسة الغطاسين على جسد يفتقر إلى التضاريس الأنثويَّة من أعلى العنق حتى الكاحل، وغطاء الرأس المطاطي الذي لا تجرؤ شعرة على الانفلات من حدوده، والجلد الجاف المطبق على عظام الوجه كجورب يُغطي جمجمة نحيلة، والنظرة التي واجهتني بتساؤل مُسدَّد نحو عيني مُباشرة قائلة بشفتين مطبقتين:

– نعم.. ماذا تريدين؟!

ولولا أن استوقفني خط الكحل الدقيق الذي يطوِّق العينين الغائرتين، والظل الأزرق الكثيف المرسوم فوق الجفنين دون تناسق، لسارعت بالخروج شاتمة في سري أصحابه على أكذوبة "للنساء فقط" المعلقة على بابه؛ بدلاً من أن أقول باقتضاب:

– أريد الاشتراك في النادي.

– شهرٌ واحد؟ ثلاثة أشهُر؟ أم عامٌ كامل؟

– لا أعرف. أيُّها أفضل؟

– هل اشتركتِ في نادٍ رياضي من قبل؟

– لا.

– ما رأيك بيومٍ للتجربة؟

– أظنها فكرة طيّبة.

– اصعدي على الميزان.

ثم أخرجت شريطاً لقياس محيط الصدر والخصر والذراعين، وبينما كانت تُسجِّل النتائج على جدول أخضر صغير؛ انطلق صوت أشبه بصوت أجراس المدارس، هتف بعده صوت أنثوي شاب مفعم بالنشاط:

– بيشوووووووو.. تعالي بسرعة، نحن مُستعدَّات.

فردَّت المُدرَّبة بصوتٍ يُشبه غناء الزَّجل:

– قاااااااااادمة يا عينيييي.

أشارت لي بيدها أن "اتبعيني" وهي تمشي بخطوات عسكرية متجهة نحو باب أفضى بنا إلى ساحة تدريب غير مسقوفة، مزروعة بعشب أخضر. ولم تمضِ نصف ساعة من الجري وتمارين الإحماء مع بقية المتدربات حتى وقعت من الإعياء وصدى نبضات قلبي يقرِع في رأسي بجنون. وبينما كانت الأصوات تختلط من حولي، والوجوه التي بدأت تحيط بي تتداخل في بقع لونية ضبابية، انبثق وجهه المضيء. كان هادئًا، واثقا، تجلله هالة صمت دافئة. شعرت برغبة في الابتسام، ذاب شعوري بالتعب، وفقدت وعيي.

****

قالت لي الكابتن "بيشو"، التي عرفت من توقيعها على إيصال تسديد رسوم الاشتراك أن اسمها الحقيقي "بشرى"، أنني يجب أن أتحلى بكثير من الصبر والإرادة كي أحقق حلمي بفقد أربعة عشر كيلوجرامًا كاملة. وضحكت كثيرًا بعد أن رمقت جسدي بنظرة إشفاق حين أفصحت لها عن طموحي في أن أصل إلى قوام شبيه بقوام "أنجيلينا جولي"، لكنها قالت بما يُشبه المُجاملة:

- لا شيء مُستحيل، ومجرد الطموح خطوة لا يُستهان بها.

سمعت "يوسف" يكرر العبارة ذاتها بصوت واثق، ونبرة صادقة مشحونة بروح الحماسة خلال درس الرسم الأول. كنا خمسة في قاعة ينساب الضوء بكثافة إلى أرجائها من قبة زجاجية ملونة، وجدارين نصفهما العلوي من الزجاج الشفاف، بينما امتدت مرآة كبيرة مصقولة على الجدار

الذي يقف أمامه متكئًا بإصبعي يده اليمنى على طاولة خشبية وهو يقول:

- كل فنان خلد التاريخ اسمه كان ذات يوم مبتدئاً مثلكم. لا أحد يولد وبين يديه فرشاة رسم سحرية، لكن تحديد الهدف والمُثابرة يصنعان المُعجزات.

ثم قفز برشاقة ليجلس على زاوية الطاولة الخشبية ويكمل:

- للفن التشكيلي، كما أظنكم تعلمون، مدارس عديدة. أبرزها المدرسة الرومانسية، والمدرسة الكلاسيكية، والمدرسة الواقعية، والمدرسة الانطباعية، والمدرسة الوحشية، والتعبيرية، والتجريدية، والتكعيبية، والسُريالية، والرمزية، ومدرسة ما بعد الانطباعية، والمدرسة الدادائية، ومدرسة ما قبل الروفائيلية، وأخيرًا؛ المدرسة

المُستقبلية. وفي دورتنا التدريبية هذه سنكتفي بمذهب المدرسة الكلاسيكية لأنها أم المدارس الفنية، ويعتبر الفنان الإيطالي ليوناردو دافنشي من أبرز روادها، ولوحة الموناليزا من أشهر الأمثلة عليها، ولو شاء الله ورافقتموني في مستويات أرفع سنعرج على كل من المدرسة الواقعية، والرومانسية، والانطباعية.

قال بعدها أشياء كثيرة، كبيرة، لذيذة لم أسمعها من غيره، شعرت معها أن العالم شاسع، كبير، ممتلئ بأشياء كثيرة لا أعرف عنها شيئاً. وحين كان يقترب بخطواته قليلاً من مقاعد الطلاب وهو يتحدث موزعاً نظراته الواثقة على كل فرد بعدالة؛ كانت المرأة الكامنة في قمقم سري داخل صدري تنطلق لتغرق في عطره الفرنسي وأحترق أنا من الداخل بصمت. وددت أن تتجمد اللحظة، وأن يستمر في حديثه بغير انقطاع كي لا ينتهي الدرس فأذهب إلى بيتي حيث الملل والرتابة والانطفاء، ويذهب هو إلى حيث لا

أدري أين ينام، وماذا يأكل، وكيف يفكر، ومع من يتكلم. لكن الدرس انتهى، وعدت إلى البيت لأكتشف أن مخزون الضوء الذي تغذى عليه قلبي في السويعات الماضية معه يكفي لتبقى الإنسانة التي في داخلي غافية في أحضان سماء لا يراها سواها.

بعد أسبوعين تقاعست عن مغادرة قاعة الرسم منتظرة مغادرة جميع الدارسين قبلي عمدًا، بدأ قلبي ينبض في رأسي بجنون وأنا أقترب من مكتبه دون ثقة كلصة مبتدئة حيث يقف فاحصاً إحدى اللوحات بعدسة مكبرة. بلّلت ريقي قبل أن أقول بارتباك:

- ألواني المائية سيئة جدًا. تتسبب بتجمع بقع لونية على اللوحات، ولا أدري ما النوع الذي أختاره.

لم يكن مهمًا أن يظنني غبية، المهم أن أقترب منه، أتكلم معه بأي حديث أعتبره ثميناً مهما بدا للكون بأجمعه تافهاً سخيفاً. قال بلهجة واثقة تشوبها سخرية:

- لا بد وأنها صينية!

- كيف عرفت؟!

- واضح جدًا.. استبدليها بألوان فرنسية أصلية وسترين الفرق.

- أظن أنني سأتعبك قليلاً، لكن هل من الممكن أن تكتب لي اسم العلامة التجارية للألوان التي تستخدمها أنت لأن نتائجها تروق لي جدًا؟

- آه.. لا مشكلة.

وضع اللوحة التي بين يديه على حامل خشبي، واتجه نحو طاولة المكتب الشبيهة بلوحة فوضوية تتزاحم عليها الأوراق، والأقلام، وقوارير ألوان نصف ممتلئة، وعلبة مياه غازية مفتوحة، وفتات بسكويت على طبق زجاجي أزرق، ومجموعة كتب بالفرنسية، وكتاب "مدخل إلى علم الجمال" لـ "هيجل" بالعربية. قال وهو يبحث داخل الأدراج التي بدا من حركة يديه بداخلها أنها ليست أوفر حظاً من سطح الطاولة:

- كنت أود إعطاءك الدفتر الترويجي الخاص بها، لكن يبدو أنني لا أجده.

عندها سقطت من ركام الفوضى صورة صغيرة على الأرض، رفعتها برفق لأرى طفلة تبدو في الرابعة أو الخامسة من العمر، بشعر كستنائي أجعد وعينين زرقاوين برّاقتين، تقود دراجة بثلاث عجلات تعلوها صورة دب باسم. جاءني صوته موضحًا:

– إنها ابنتي.

تماسكت كي لا يلحظ صدمتي باكتشاف أنه متزوج. قلت بابتسامة بلاستيكية حاولت رسمها بإتقان:

– ما شاء الله.. ما اسمها؟

– سيمون.

فكرت بحزن يشوبه حقد على نفسي، وعلى الكون كله:

"سيمون يوسف.. اسم يشي بمستقبل فني واعد. لن أكون ممن يفغرون أفواههم دهشة حين تتصدر صورتها أغلفة المجلات بعد عشرين عامًا". لكنني قلت:

– حفظها الله، تتربى في عزكم.

– هي الآن تتربى في عز والدتها في فرنسا، وليس في عزي.

غامرت منتهزة فرصة قد لا تتكرر:

- **لماذا؟**

- **نحن منفصلان منذ ثلاثة أعوام.**

أغلق الدرج الأخير من مكتبه وهو يقدم لي دفتر الألوان التي سألت عنها. شكرته.. وخرجت من معرضه و رغبة في الرقص طوال الطريق تتملكني لأن الصدفة أجابت عن أكبر سؤال طالما مضغ أعصابي: "هل هو رجل متزوج؟".

(٦)

عاد "سعيد" من لندن بشخصيته التي تضفي على أجواء البيت روح المرح. يبدو أصغر مني بعامين رغم أنه يكبرني بأربعة أعوام، وأشعر أنه يسترد كل عام تجبره الأيام على إنفاقه من عمره في كل مرة يسافر فيها إلى أوروبا وكأنه يشرب ماء الحياة من بئر سري هناك! لم تكن العلاقة بين والدي – رحمه الله– وبين أخي "سعيد" الذي فصل من ثلاث مدارس ثانوية لمُشاغبته علاقة طيبة، وزاد طينها بلة تلك المعركة التي تلت قبضه عليه في الحمام وهو يدخن. انفجرت يومها أولى محاولاته الصريحة للتمرد علناً أمام والدي صارخاً بأنه لم يعد يحتمل هذه الحياة في بيت لا يسمح له بممارسة أبسط حقوقه في الحرية رغم أنه لا يؤذي الآخرين، وأنه ليس من حق مخلوق التطفل على شؤونه الخاصة مادام لا يعتدي على حقوق أحد، بينما نعته والدي بالفساد والعقوق وعدم الفائدة وهو ينهال عليه ضرباً عشوائياً بيدٍ عمياء. بعد أيام من خصام أصم بينهما

نجحت والدتي بمساعيها الحميدة في رتق ما تمزق بين الأب وابنه، أو على الأصح؛ ظننا ذلك حين تنازل "سعيد" عن عناده موافقاً على أن تأتي به والدتي ممسكة بيده ليقبل رأس والده وأنفه، ويعتذر معلناً التوبة، ويعده بأن كل شيء سيكون على ما يحب ويرضى. سار كل شيء خلال الشهور الثلاثة التالية بهدوء غير مسبوق. بدأ "سعيد" يتفوق في دراسته على غير العادة. يواظب على الصلوات في الجامع الذي يرتاده والدي، وينام مبكرًا، ويلقي التحية بخشوع على الرجال الكبار من أصحاب أبي عارضاً عليهم مساعدته في كل ما يريدون حتى صاروا يضربون به المثل، ويمدحون أبي على حسن تربيته، ويعايرون أولادهم به، ولم يعاود ملاقاة رفاقه القدامى أو محادثتهم هاتفيًا أمامنا. في ختام العام الدراسي بزغ اسمه بين أسماء المتفوقين على غير ما توقع له أبي في بداية العام، ويوم استلام وثيقة درجاته المدرسية نفّذ مخطط تمرده الكبير وهرب من البيت بكل هدوء؛ ودون ضجة كبيرة. خرج لاستلام الوثيقة ولم يعُد. وبعد ثمان وأربعين ساعة من البحث والسؤال

أبلغتنا الشرطة أنه سافر إلى لندن. متى خطط للأمر؟ من أين استطاع تدبر أمر تأشيرة الدخول وتكاليف السفر؟ وكيف استطاع حبك مخططه الكامل بعناية خلال الفترة الماضية دون أن نشم رائحة حركة غريبة في سلوكياته؟! أعجبت به كثيرًا كرمز في ذلك الحين رغم أنني لم أعلن انبهاري أمام أهلي الذين دفعهم الفزع مما فعله أخي لمضاعفة تضييق الخناق على خطواتي وهمساتي. شعرت أنه أمام جُبني الكبير بطل، أسطورة، فدائي مناضل يستحق التبجيل. استطاع هذا الولد الذي لطالما اتهمه والدي بالغباء والحماقة، وما انفك يعايره بمستقبله الذي لا شك في خرابه لأنه رسب في المدرسة الثانوية مرتين تحقيق ما كنت أحلم به في نومي ويقظتي كثيرًا دون أن أجرؤ على تحقيقه، وأثبت أن باستطاعته فعل ما يريد حينما يريد دون تدخل من أحد، وبرهن بدهاء كبير على أن البيت الذي تسبب بفراره لا يضم أشخاصًا أذكى منه كما يظنون.

بعد أسبوعين اتصل من هاتف عام ليطمئن والدتي على أنه بخير، واستمر بعدها يحادثنا هاتفيًا لخمس دقائق في ساعة محددة كل أسبوعين، رافضاً الإفصاح عن عنوانه أو رقم هاتف يمكننا من الاتصال به حينما نشاء، وكان يرسل لنا رسائل مطولة بالبريد العادي مغفلة من عنوانه كل شهر، يكرر اعتذاره فيها لأبي وأمي ويؤكد حبه لهما؛ وأنه كان مضطرًا لفعل ما فعل لأنه لم يعد قادراً على تحمُّل ما اسماه "سجناً معنويًا كبيرًا لقطيع يظن أن الحياة لا يمكنها أن تسير إلا على النمط الذي يظنه هذا المجتمع صحيحًا"، ولأنه "رجُل عاقل راشد، وقبل أن يكون رجُلاً هو إنسان له حقوق منها حرية التعبير عن رأيه والحياة وفق القرارات التي يتخذها لنفسه ما دام لا يؤذي الآخرين أو يسيء إليهم، أو يُغضب الله، أو يخرق قوانين الدولة". ولم يكن يرسل أي رسالة إلكترونية لئلا يفتح باب الرد على عنوانه. كان ممسكاً بزمام اللعبة جيدًا، وكان إعجابي مع غيابه الغامض يتضاعف. بعد خمسة أعوام عاد بحلة أنيقة ووجه متورد حاملاً شهادة جامعية في الأدب الإنجليزي خيبت آمال

والدي السحيقة في أن يكون ابنه البكر محاميًا، وتضاعفت الخيبة حين أعلن بصراحة أنه يرفض أن يكون "عبدًا مسخرًا" بأن يكون موظفاً حكوميًا لدى الدولة كما يتمنى جميع السذج، وسيكتفي بتقديم دروس خصوصية في اللغة أو التعاقد مع بعض المعاهد التي تقدم دورات فيها دون التزامات طويلة وصفها بـ "السجن المؤبد". لم يكن بيد والدي الذي كسر ظهره المرض وكبر السن، وأرهقت روحه الخسائر ووفيات الأحباء والأصدقاء في ذلك الوقت إلا أن يسامحه ويعفو عما سلف راجيًا أن يكتشف هذا "الابن الطائش" نتيجة أفعاله بمرور الأيَّام؛ حين تواجهه بالفقر والفشل والصعلكة في بلدنا. لكن تلك الأيَّام خذلت توقعات أبي تمامًا وهزمتها بخطوات النجاح الساحقة التي سرعان ما حققها "سعيد" قبل إتمام ثلاثة أشهر من عودته. اكتشفنا أنه كان قد بدأ التعاون مع بعض المؤسسات الإعلامية العربية في لندن كمترجم منذ أن كان هناك، واستمر هذا التعاون عبر وسائل الاتصال الحديثة بقدر ظل يوفر له مكافآت شهرية مجزية. كما أن روحه المرحة،

وخفة الظل التي يتمتع بها، ومقدرته الفائقة على تكوين الصداقات والعلاقات بلا حدود وفرت له المزيد من الفرص للعمل الحر في تدقيق المؤلفات والمقالات والأطروحات الجامعية، وفي أكسل شهوره كان يقبض ألف دولار – على الأقل– من عائدات الإعلانات على موقعه الإلكتروني الذي أسسه للرد على أسئلة طلاب المدارس في اللغة الإنجليزية، وبهذا كان يجني في بعض الشهور ضعف ما يجنيه أي معلم لغة إنجليزية في مدرسة حكومية. وبمساهمته في الإنفاق على البيت بسخاء احتل دور النجومية بين أفراد الأسرة وكأن شيئاً لم يكن! وشعرت أنني احتللت دور "الغبية الأولى" في أسرتنا بعد أعوام من تأدية دور الفتاة الهادئة، المُطيعة، ذات الصوت المنخفض والدرجات المدرسية المرتفعة دون أن أصل إلى نصف ما وصل إليه حين اتخذ قراراً بأن ينسى ما قد يقوله الآخرون عنه؛ ويربح نفسه.

بعد وفاة أبي صار سعيد رجل البيت بالوراثة وفق العادات والتقاليد، لكنه بقي مثلما كان قبل الوفاة؛ لا يتدخل في حياة أي فرد آخر من أفراد الأسرة أو قراراته ما لم يكن يُطلب منه هذا التدخل، وكان مبدأ حياته يكمن في ترك الآخرين يعيشون على هواهم ماداموا يتركونه على هواه، والبحث عن البهجة حيثما وُجِدت ما دامت لا تؤذي غيره، ومحاولة رؤية زاوية متفائلة في كل موقف مهما بدا ضبابيًا أو مظلمًا. وكان يعشق السفر إلى حد أنني لا أذكر أنه قضى بيننا مرة أكثر من ثلاثة أشهر دون أن يلوِّح لنا مُحلقًا على جناح طائرة، كما كان يقضي أكثر أوقاته خارج المنزل حين لا يُسافر، لكن حبه للطعام الذي تطهوه والدتي جعل من مائدة العشاء موعدًا يجمعنا أكثر الأحيان، مثلما حدث حين اجتمعنا حولها يوم عودته من رحلته الأخيرة.

قال بعد أن تلمظ مُتلذذًا بصوت مسموع:

- يا سلاااام على طبخك يا أم سعيد. شيء لا يُشبهه شيء.

قالت والدتي مُعاتبة:

- ها أنت تتركه لتأكل أوساخ المطاعم في البلدان التي تطهو بزيوت الخنازير.

انطلقت من حنجرته قهقهة قصيرة وهو يتساءل باستنكار:

- خنازير دُفعة واحدة؟

- نعم.. أنت لا تذهب إلا إلى بلاد الفسق والخنازير والمراقص.

- الناس هنا لا يفكرون بغير هذه الأمور لأن هذا ما ينقصهم، وكي يوهموا أنفسهم أنهم أفضل من

غيرهم، بينما لا يلتفتون إلى الجوانب الأخرى المشرقة في تلك البلدان.

– وماذا في تلك البلدان غير قلة الأدب؟

– مظاهر الحضارة.. النظافة.. التقدم العلمي.. حرية الرأي.. شعور الإنسان بإنسانيته دون تمييز...

قاطعتُ تدفقه لأقول بلهجة ساخرة:

– خفف علينا قليلاً يا "غيفارا" العصر والزمان!

– خففي علينا أنتِ يا "دافنشي".. وبالمناسبة؛ صحن الفواكه الذي رسمتِه وعلقتِه على باب الثلاجة أصابني بغثيان كدت أقسم معه بصيام الدهر كله لولا إغراء ما تطبخه أمي.

ثم التفت إلى والدتي قائلاً:

- على ذكر طبخ البيت؛ هل باستطاعتنا دعوة صديقي "يوسف" على عشاء أو غداء؟

بدأت نبضات قلبي تتسارع. مضغت قطعة خبز وأنا أحاول صب المزيد من الحساء في صحني كي لا يلتفت أحدهما إلى اضطرابي، رغبتي في السعال واستنشاق جرعات أكبر من الهواء، صوت قلبي الذي يكفيه سماع اسمه ليضيء، ويتأجج، وينطلق من صدري للركض حافيًا ألف مرة حول الكرة الأرضية لمجرد سماع هذا الاسم.

أجابت أمي:

- يبدو أنك تعز هذا الولد جدًا، منذ خمس سنوات أو أكثر لم تفكر بدعوة أحد أصدقائك إلى بيتنا، ونصف أرباح مطاعم البلد من جيبك وجيوب رفاقك الصيَّع!

- من ناحية كوني أعزه فأنا فعلاً أعزه، هذا أولاً، وثانيًا؛ "يوسف" بالنسبة لي حالة خاصة لأنه عاد من بلاد مختلفة منذ فترة قصيرة لا تسمح له بالتكيف مع الحياة هنا. حياة الوحدة والاعتماد على الوجبات السريعة و"السدنتري لايف ستايل" بدأت تبرز له كرشًا وقد تسبب له ذبحة قلبية، خصوصًا وأن نمط الحياة الكسولة هنا ليست كما في فرنسا.

- وما هي هذه التستسنتري؟

- السدنتري.. الحياة كيفما اتفق.. بالصدفة.. على البركة!

سألت بلهجة مُتغابية وأنا أقضم ورقة خس كبيرة:

- ولماذا لا يتزوج ويريح نفسه؟

- يتزوج؟! من الصعب على من جرب النساء هناك أن يتزوج امرأة من هنا!

احتجَّت والدتي:

- وما بالهن النساء هنا؟ ناقصات يد أم رجل؟

- لا.. ناقصات "عقلٍ ودين" فقط!

تدخلت سائلة بنبرة جادَّة:

- هل هن حقًا أجمل منا؟

- المسألة ليست مسألة جمال يا سلوى، المسألة مسألة جُرأة وثقة بالنفس.

- ولو أننا كنا جريئات وأخذنا زمام المبادرة وفق تعريفكم لاتهمتمونا بالانفلات وقلة الأدب، واتخذتموها حجة لعدم الزواج من بلدكم.

- هنا تكمن المشكلة!

- أية مُشكلة؟!

- هذا الحاجز الغريب الرهيب بين الرجل والمرأة لدينا تسبب بنمو ملايين العقد القائمة على سوء الفهم بينهما. الرجال والنساء هنا يولدون، ويكبرون، ويتزوجون، ويُنجبون، ويموتون دون أن يحاول نصف المجتمع فهم نصفه الآخر!

قلت بتململ:

- هاقد بدأنا نعقد الأمور!

- هي معقدة بنا ومن دوننا.

- لو أننا تغزلنا بالرجال الأجانب ليل نهار مثلكم لقامت الدنيا على رؤوسنا ولم تقعد!

قالت أمي:

- والله لو تقدَّم لطلب يدي اليوم شابٌ أحمرٌ، أعطرٌ، أشقرٌ، أزرق العينين من بلاد الإنجليز، فلن أرفض.

رد سعيد بمرح وهو يقضم فخذ دجاجة مقلية:

- ولا تنسي دعوتنا إلى حفل الزفاف يا قمر!

(٧)

وافقت والدتي على دعوة "يوسف" للعشاء، ورغم علمي أن الرجلان سيجلسان وحدهما على المائدة بينما نأكل أنا وأمي وطفلتي في مكان آخر مراعاة للعادات والتقاليد؛ إلا أن مجرد تردد أنفاسه في البيت الذي أعيش فيه ملأني شعورًا بأن السماء تحبني أكثر مما كنت أظن. كانت روحي مثخنة به من الداخل بينما أبذل جهدًا موجعًا لأبقى على صورة المرأة التي يعرفها الجميع، وكنت أخشى أن تفوح رائحة هذا السر المتورم في صدري وأغرق في مستنقع الفضيحة أمامه أو أمام أهلي. وددت لو كان لقلبي نصف جرأة قلب "سعيد" الذي يرد على تساؤل والدتي المفضل: "وما الذي سيقوله عنا الناس؟" قائلاً بثقة: "الناس؟! من هؤلاء الناس؟ أين دورهم في حياتي كي أحسب لهم حسابًا أو بعض حساب؟ ما الذي قدموه لي كي يكون لهم حق التطفل على مشاعري وأفعالي وخصوصيَّاتي؟! من كان بلا خطيئة فليرمني بحجر، ومن يرمني بحجر سيكون

بانتظاره مني ألف حجر. فليشموا روائح فضائحهم أولاً قبل أن يتشاطروا على غيرهم!". قد يكون "سعيد" على حق أيضًا في أن كفة ميزان الجاذبية الأنثوية ترجح الأوروبيات علينا، وربما لو كنت رجلاً لاستطعت فهم الأسباب الحقيقية التي لعله كان يخفيها من باب التهذيب، أو المجاملة، أو الحفاظ على أسرار عالم الرجولة. لكن "سعيد" لا يهمني من هذه الناحية؛ من يهمني حقًا هو "يوسف". هل يعتنق هو الآخر رأيًا مُماثلاً؟ أظن ذلك، وإلا لما تزوج بفرنسية من قبل! أو قد يكون تزوجها لأسباب أخرى خاصة لا علاقة لها بتلك المقارنة؟ لا بد وأن "سعيد" يعرف عنه الكثير، لكن كيف يمكنني اختلاس ما أريده من حقائق ومعلومات دون أن يكتشف اهتمامي السري الكبير بصديقه؟ وعلى افتراض أنه كان يعتنق رأيًا مُغايرًا؛ فأية معجزة خفية تلك التي ستجعله يحبني أنا من بين جميع نساء البلد؟ لو كان سيلتفت إلي لالتفت خلال الأسابيع الستة الماضية أثناء دروس الرسم التي كانت كل كلمة منه فيها تستبدل خطًا رماديًا من خطوط شخصيتي

بخط وردي منحوت بعمق وهو لا يدري بالانقلابات الرهيبة التي تنسف ممالك عتيقة في داخلي لتشيد مكانها ممالك أخرى على ذوقه وهواه. انتهت دورة "المدرسة الواقعية" وستبدأ بعد يومين دروس "المدرسة الانطباعية" وأنا تائهة في بحر مدرسة الحُب للمرة الأولى دون بوصلة، أو مرساة، أو قارب نجاة، ودون أن أعرف السباحة. أعد الدقائق عدًا حتى يحين موعد كل درس لأراه، وأذهب قبل الموعد بساعة متحججة بإتمام لوحتي التي أتعمد إسقاط بعض تفاصيلها كي لا تنتهي إلا على حافة موعد تسليمها الأخير كي لا يفوتني يوم دون رؤيته، وأظل شاخصة نحو باب قاعة الرسم حتى يشرق علينا منه بهالة السحر التي تشرنق كيانه من الرأس إلى القدم، فتخطف الأنفاس وتورث وخزة لذيذة في القلب يخفق معها ذاهلاً مبهورًا مثلما انتابته نوبة خفقان مجنون وهو يدخل باب بيتنا ساعة العشاء. لم أسمع ما قبل الضحكة المجلجلة التي أطلقها هو و سعيد على ذات الإيقاع، لكنني سمعت أخي يقول بعدها:

- تعال.. ادخل برجلك اليمنى ولا تخجل، البيت بيتك.

جلسا على أريكتين متقابلتين، وأنا أراهما من مكاني على رأس الدرج الدائري الأنيق المؤدي إلى الطابق العلوي، حيث السياج الخشبي المطل على صالة البيت؛ وراء الستارة التي تخفيني عنهم وتظهر مكان جلوسهم لي بوضوح. سمعت صوت "يوسف" مكملاً حديثًا بدأه قبل دخوله:

- كل ما يهتفون به أنهم يريدون الحُريَّة! أية حُريَّة؟ ما نوعها؟ ما شكلها؟ ما تعريفها؟ هم أصلاً لا يعرفون! إنهم بلا أيديولوجية واضحة، ولا أخشى القول بأن جلهم بلا عقل، مُجرد ببغاوات تردد في الشوارع كلامًا صُب في آذانها صبًا وهي لا تفهم معناه!

- لو سمعك أحدهم تتفوه بهذه الكلمات لاتهمك بالتنكر للوطن وحقوق الشعب.

- فليسمعوني وليتهموني. أنا أصلاً أكفر بكل تلك المظاهرات ولا أعترف بجدواها في مثل هذه الظروف التي تتطلب سياسة أخرى. ماذا يُريدون على وجه التحديد؟ إسقاط النظام؟ أبصم بأصابعي العشرين أن كل نظام سيأتي في هذا البلد سيكون أسوأ وأخس وألعن من سابقه. وأزيدك من الشعر خيمة يا أبا السعود؛ لو أنني أنا نفسي حكمت هذا البلد لما كنت إلا ديكتاتورًا، وقد أغدو ديكتاتورًا رهيبًا يجعلهم يترحمون على أيَّام الحكومة السابقة ألف رحمة.

- لم أعهدك ساديًا مجنونًا إلى هذا الحد!

– رغم أن الجنون تهمة أعشقها كفنان؛ إلا أن الأمر لا يتعلق بالسادية أو الجنون، الأمر يتعلق بأن هؤلاء لا يُدركون مصلحة أنفسهم ولا يعرفون أصلاً ما يُريدون. إذا حكمهم نظام ديني انقلبوا عليه بحجة حاجتهم لنظام علماني يتفق مع روح العصر، وإذا حكمهم نظام علماني انقلبوا عليه بحجة حاجتهم لنظام ديني يحكم وفق أوامر شريعة السماء دون تبديل، وإذا حكمهم نظام رأسمالي طالبوا بنظام اشتراكي يحقق العدالة والمساواة، وإذا حكمهم نظام اشتراكي ثاروا عليه لأنه يحرمهم فرصة إشباع شعورهم الفطري بالتملك، وإذا حكمهم نظام تعددي هاجت نعراتهم الطائفية وعصبياتهم القبلية وسل كل واحد منهم سيفه ليتفقوا على إشعال حرب أهلية! يا أخي ماذا

يُريدون؟ الجواب: هم أصلاً لا يعرفون! كلٌ يُغني على إيقاع مصالحه الشخصية وكفى!

– من الصعب أن نلومهم يا "يوسف"، لا تنس أن التعليم يصنع جزءًا كبيرًا من وعي الإنسان، والتعليم الحكومي هنا ضعيف جدًا وفقير، وجوده مثل قلته، والتعليم الخاص، الحقيقي، المدعوم برعاية أجنبية لا تقدر عليه إلا جيوب الصفوة وهم قلائل. هناك الفقر، والبطالة، والمرض، والفساد الإداري، و...

قاطعه يوسف قائلاً:

– المشكلة ليست مشكلة "تعليم" بل مشكلة "تفكير".. أعطني اسم بلدٍ واحد يخلو من البطالة والفقر والفساد والمرض؟ حتى بلدان العالم

المتقدم كفرنسا وبريطانيا هناك متسولون ومشردون ومرضى، وعلى قضايا الفساد التي لا تنتهي تتغذى جيوب المحامين. لكن جماعتنا يتكلمون ويتصرفون كأنهم يعيشون في صندوق مغلق لا يرون فيه عالمًا آخر حولهم. يحملون جراب الشكوى على ظهورهم وكأنهم المظلومون الوحيدون في هذا الكون دون أن يتنازلوا عن شيء من كسلهم ليغيروا حياتهم إلى الأفضل. باختصار؛ هم يريدون جهة ليلقوا بتبعات كسلهم وتواكلهم عليها، وأنسب جهة لذلك بالنسبة لهم هي الحكومة!

- الحكومة ليست نظيفة الذيل يا يوسف!

- وهل هناك حكومة مثالية بنسبة مائة بالمائة؟

أطلق سعيد ضحكة ساخرة وقال:

- من يسمع دفاعك هذا عنها يحسبك على تيَّار اليمين!

- لست مع اليمين ولا مع اليسار، أنا مع ما أراه صحيحًا.

- وما الصحيح من وجهة نظرك؟ أو بصيغة أكثر وضوحًا؛ ما هو الحل؟

- الحل في أن يكون كل إنسان هو التغير الذي يختاره في هذا العالم، كما قال غاندي من قبل.

- هذا الحل لا يصلح في هذا الموقف، لأن كل فرد منهم يتصور أنه يصنع الآن بالفعل "التغير الذي يريده في هذا العالم". هناك أمرٌ هام يجب ألا نغفل عنه؛ وهو أننا نحن أيضًا كنا نفكر بتلك الطريقة قبل أن نخرج إلى أوروبا، ونرى وجوها

جديدة، ونقرأ كتبًا عديدة، ونتنفس الحُرية الحقيقية، ونولد بشخصياتنا هذه من جديد.

- كانت لدينا، على الأقل، بذرة تمرُّد على أنفسنا وواقعنا الشخصي...

- نعم، لكنه تمرد غير موجَّه. تمرُّد طائش عشوائي، لا يختلف عن تمردهم الذي تراه اليوم، فيه من النقمة على الآخرين أكثر من نقمتنا على ذواتنا المتواكلة. كُنا نقرأ ونقرأ ونقرأ بقلوب عمياء، ويتعفن ما نقرأه على ما نقرأه مكونًا قوة تدميرية سامة تفح في صدورنا كقنبلة آيلة للانفجار في أية لحظة دون توقيت. انعدام حرية إبداء الرأي يحول هذا الغليان الداخلي إلى طاقة لا تجد طريقاً لتصريف انفجاراتها غير الطريق الذي تراه. لا تتوقع منهم أن يهلكوا أنفسهم في العمل ليل نهار

لزيادة الإنتاج ورفع مستوياتهم الاجتماعية باستمرارية التعليم والتخطيط السليم كي يحصلوا على حقوقهم بهذه الطريقة السلمية لأن لا أحد علمهم هذا من قبل. ولا تنس أن أكثرهم يخضع لثقافة القطيع، يرفعون شعارات رفض العبودية ضد الحكومة بينما ينساقون كالعبيد وراء أوامر العقول التي تسيِّرهم وفق هواها لأجل تصفية حسابات شخصية قديمة مع الحكومة بحجة أنها تعمل لأجل ما يظنونه مصالحهم، وحريتهم، والعدالة المجتمعية التي يتوهمون إمكانية تحقيقها على الأرض! لاحظ – مثلاً– لعب تلك العقول المحرضة على حبل "حقوق المرأة" بطريقة تفوح منها رائحة الخيانة للمرأة وإنسانيتها وحقوقها. يقنعونهن بالاحتشاد، والتجمهر، ورفع الشعارات السياسية النارية في الشوارع بحجة أنهن "شريكات

الرجل في نضاله لأجل الحرية" و "الشجاعات الحرائر"، رغم أن طبقة الأكثرية المتزمتة دينيًا ومجتمعيًا اللواتي ولدن منها ويعبرن بأصواتهن لصالحها هي أول من سينقلب عليهن ويسلبهن حتى الحقوق التي وهبتهن هذه الحكومة إيَّاها، وهؤلاء المتزمتون أنفسهم هم أول من سيبتكر الفتاوى التي تحرم ما يسمونه خروج المرأة إلى الشارع واختلاط صوتها الذي يرون فيه "عورة" بأصوات الرجال الهاتفين في تلك التجمعات.

– النساء هنا حكاية أخرى يا رجل. إنهن لسن فصلاً من رواية هذا البلد، بل رواية كاملة مستقلة بذاتها. من الطبيعي أن يكُن قوى معطَّلة وفريسة سهلة للاستغلال من قبل الجهات التي تحتاج زيادة في الكم على الكيف. من السهل استعمال عواطفهن وأصواتهن في الانتخابات، والمظاهرات،

والتجمعات السياسية حين يرغب الرجال بذلك فقط، وحين يُقررون ذلك. وبعض رجال الدين هنا يتقنون تلك اللعبة لأنهم يدركون التفسير الحقيقي لمقولة "ناقصات عقلٍ ودين"، فيمنعون عنهن السبل المؤدية إلى المعرفة الصحيحة والثقافة الروحية وتجارب الحياة كي لا تكتمل عقولهن فيكتشفن الجريمة الكبرى التي ترتكب بحقهن. والأسوأ من هذا أن بعض المثقفين المزدوجين نفسيًا وسلوكيًا يُساهمون في تلك الجريمة بحجج لا أستطيع فهمها!

– يووووووووه.. لدينا أعداد مهولة من هؤلاء الذين يفلسفون ويؤدلجون وجهات أنظارهم المتخلفة إزاء المرأة في هذا البلد على هواهم دون أن يُحركوا ساكنًا لمعالجة ظروفها. من النادر أن تصادف لدينا مثقفاً حقيقيًا متصالحًا مع ذاته

خصوصًا فيما يتعلق بشؤون المرأة؛ رغم أنها ليست شؤونه!

- لهذا السبب لا يسعنا أن نلوم نساء هذا البلد على أنهن غير ناضجات، وغير مكتملات عاطفيًا ومعنويًا. كيف يكتملن ما دمن يحرمن من خوض أبسط التجارب الإنسانية، ومن التعبير عن أصغر حرياتهن الفردية الشخصية، وحتى إن لم تمنعهن الحكومة تمنعهن نظرات المجتمع غير المكتمل إنسانيًا.

- على قولك.. وحتى الرجال في هذا البلد لم ينضجوا ولم يكتملوا، بل وحتى نحن لم ننضج ولم نكتمل بما فيه الكفاية مقارنة بأقراننا خارج هذه القوقعة..

واستطرد بلهجة مازحة:

- وحتى ننمو ونكتمل يجب أن نتناول وجبة العشاء التي سأذهب الآن لأرى أخبارها. دقائق قليلة وأعود، اعتبر نفسك في بيتك.

ونهض من مقعده متجهًا إلى الدرج الذي أقف على رأسه، فركضت نحو المطبخ بخطوات خفيفة حافية، وفتحت باب الثلاجة لأعبث بدرج الفاكهة متظاهرة بالانشغال، وسرعان ما جاءني صوته يتساءل:

- أين أمي؟ هل العشاء جاهز؟

أجبت وأنا أخرج إبريق الماء من الثلاجة:

- نعم، كل شيء جاهز.

(٨)

فوجئت بأن طلاب دورة "المدرسة الانطباعية" أكثر من "الواقعية" بثلاثة أضعاف، وصعقت حين وقع بصري على الفتاة العشرينية ذات السروال القصير؛ التي سبق وأن رأيتها في مكتبه من قبل، تشاركنا تلك الدروس! بدأ الدم في شراييني يغلي وأنا أرى الخاتم ذي الفصوص الصغيرة الفسفورية في بنصر كفها التي لا تنفك عن إبعاد خصلات شعرها الأسود المكوي عن خديها بحركة تسيل غنجاً كل دقيقتين، والقميص الوردي الذي تزينه صورة وجه دائري كبير تحتله ابتسامة عريضة، والتنورة الجينز التي لا تغطي أبعد من دائرة الركبة. ثم جاء هو بوجهه القادر على شطف كل أحزان العالم وقهره في صدري. بدا مشرقًا، نقيًا، قادمًا من عالم سحري بعيد لا يصله أمثالنا من العاديين. جلس على الطاولة الخشبية الكبيرة بقفزة رشيقة، ودون مقدمة طويلة نظر إلينا بابتسامة قادرة على إيقاظ جنون خفقات القلب المهووس به، وقال بصوت هادئ:

- أنا مسرور جدًا بعودتكم إلى هنا مرة ثانية. مسرور بالذين أغوتهم فتنة الفن التشكيلي بعد "المدرسة الواقعية" فتاقوا لتعلم ما بعدها، ومسرور أكثر بأولئك الذين اجتازوا دورات مدارس الفن التشكيلي من قبل، أو بعضها، معي أو مع غيري، لكنهم عادوا اليوم لأجل المدرسة الانطباعية بوجه خاص، لأنها مدرسة تستحق الاقتراب من فنها أكثر، وهي – بالمناسبة– إحدى المدارس المفضلة لذوقي إلى حد كبير، لأنها تهب الفنان حرية أوسع في التعبير عن ذاته الداخلية ورؤيته النفسية للأشياء من المدرسة الواقعية. فالفن بجميع أشكاله؛ والفن التشكيلي بوجه خاص يعتمد على ثقافة الروح والإحساس العميق بجمال الأشياء أكثر كثيراً من اعتماده على مهارة اليد

وإتقان رسم الخطوط. لن تكونوا رسامين مبدعين إلا إذا امتلأت أرواحكم إحساسًا بالمشهد الذي تنسجون خطوطه على اللوحة، والأهم من هذا؛ أن تمتلك نفوسكم الثقة الكافية والشعور بالتحرر المطلق كي تعبروا عما في دواخلكم بمنتهى الصدق والحرية مهما كان مضمونه، ودون خوف من آراء الآخرين أو ردود أفعالهم. في الحرية الكاملة شيء من الطفولة التي تهوى كسر ثوابت الأشياء دون خوف من العواقب، ودون هذا القدر من الطفولة المحرضة على الانطلاق الحر والاكتشاف المستمر بعين نقية جديدة لا يكون الفنان فناناً.

داست ذات التنورة القصيرة بصوتها على أعصابي وهي تعلِّق:

– لكن يا مسيو يوسف معظم الناس من حولنا يخافون، وإذا طُلب منهم التعبيغ عن آغائهم لا يستطيعون.

– لهذا هم عاديون! والإنسان العادي مجرد ظل، تابع، رقم بين ملايين الأرقام التي تتنفس بصمت فوق سطح الأرض.

– بغافو مسيو يوسف! جغأة آغائك مذهلة.

وجن جنون المرأة التي تتقلقل على نار الغيظ في داخلي.. "بغافو" أيتها القملة اللثغاء! من تظنين نفسك؟! الملكة "ماغي إنتوانيت"؟! لمَ لا تبقين في قصرك العاجي إذن لتشبعي من أكل التبن بدلاً عن البسكويت؟

رد على تعليقها بهدوء:

– شكرًا يا سوسو.

ثم أكمل وهو يدون ملاحظات قصيرة على اللوح:

- بداية سنتحدث قليلاً عن "الانطباعية" كفكرة قبل أن نتعلم أسلوبها في الرسم. ربما يعلم أكثركم أن اسمها جاء من أنها تعتمد على تسجيل الفنان لانطباعه الشخصي الكلي للمشهد الذي يراه أمامه في لحظة معينة من الزمن دون اهتمام بالتفاصيل الدقيقة أو الناحية الموضوعية للوحة، مع التركيز على تدرجات الضوء والظل وتأثيرات المناخ على المشهد. هذ اللوحات الانطباعية التي ترونها أمامكم الآن كلها للفنان الفرنسي "أوغست رونوار" الذي تميز ببراعة فائقة في رسم الطبيعة تحت الضوء الدافئ، موضحاً بفرشاته تأثيرات الضوء والمناخ على أشكال البشر والزهور

ومختلف مظاهر الجمال الطبيعي المدهش. هنا تكمن العبقرية الفنية من وجهة نظري؛ في اكتشاف مكامن الجمال السرية التي لا يراها الناس العاديون من ذوي الأحاسيس الضبابية. ركزوا معي الآن للحظات...

وفجأة مد كفيه إلى بطيخة مستديرة خضراء ودحرجها بقوة كما يدحرج لاعب محترف كُرة بولينغ على الطاولة لتصطدم بالمرآة وتتناثر شظاياها الوردية تحت الضوء الساطع في مشهد بانورامي برَّاق على سطح مرآة لامعة أخرى وضعت على الأرض قبل بداية الدرس. ثم قال وهو ينظر إليها بعينين تلتمعان بهجة وأنفاس كأنفاس جندي خرج للتو من معركة:

– هل رأيتم هذا الجمال الإلهي العظيم؟ هذا السحر الذي لا يمكن أن يتكرر إلا في الأشياء الطبيعية

البريئة.. في تكسر موجة من موجات البحر تحت الضوء على موجة ثانية.. في انبثاقة قطرة مطر رشيقة من قلب غيمة قطنية اللون.. في تدرج ألوان الزهور ساعة الشفق.. هل تعلمون أن الفن التشكيلي لم يوجد الألوان لوحده؛ بل سرقها من كنوز ألوان الطبيعة، وعلى رأسها ألوان الأزهار التي تغري الحشرات بزيارتها لإتمام دورة التلقيح. الفن هو الأقرب دائمًا لاكتشاف كنوز السماوات التي تفيض بها على الطبيعة، وهذا القرب هو الذي يصنع الانبهار، والانبهار يصنع التساؤلات، والتساؤلات تصنع الفلسفة، والفلسفة هي صانعة علم الجمال بلا منازع.

سنبدأ الآن رسم هذه البطيخة كما نراها نحن، كما يشعر بها كل واحد منكم، وليس كما تبدو لأي عابر سبيل يجتازها ولا يعرف عنها غير أنها شيء

يؤكل فحسب. لاحظوا تدرجات الضوء بين ثناياها الثلجية، ولاحظوا نماذج الجمال المشابهة وتدرجات الألوان الفريدة في جوف ثمار أخرى، كالطماطم، والرمان، والكمثرى، وحبيبات العنب الأخضر حين تشقونها طوليًا، وتعلن عن صورة من صور العظمة الإلهية.

كانت المرة الأولى التي أسمع فيها أحدًا يتحدث عن الله بتلك الطريقة، وكانت المرة الأولى التي أكتشف فيها أنه يعرف الله، أو بكلمة أدق "يتذكره" رغم قضائه وقتاً طويلاً في أرض أجنبية بعيدة يقول الناس هنا أن من يرحلون إليها ينسون الله إلى الأبد!

(٩)

عدت إلى البيت لأجد والدتي متربعة على أرض حجرة الجلوس وهي تمسح دموعها الغزيرة أمام برنامج ديني يصرخ محذرًا من عذاب القبر، وزفير نيران جهنم، وعواقب عقوق الوالدين. ألقيت التحية على عجل متجهة نحو غرفتي كي أبدل ثيابي، وما إن قلت: "مساء الخير" حتى انفجرت في وجهي:

- مساء الخير؟! مساء الخير؟!.. مساء الخير؟! هل نسيتِ أيضًا قول: "السلام عليكم" أم تعلمتِ قلة الأدب مثل شقيقك العاق؟!

شعرت بالارتباك لحظة ولم أجد جوابًا. كنت قد ألقيت بتلك التحية لا شعوريًا لأنني اعتدت على سماع يوسف يلقيها كلما دخل علينا، وغاب عن ذهني تمامًا أن بيتنا لم

يعتد على سماعها. قلت وأنا أرسم ابتسامة اعتذار على وجهي:

- أنا آسفة.

أكملت وكأنها لم تسمعني:

- مساء الخير؟! من أين يأتي الخير إلى هذا البيت وكل واحدٍ منكما يمشي على "حل شعره" دون أن يقيم لوجودي وزنًا أو قيمة. أخوكِ يتسكع في بلاد الفسق والفساد، وأنتِ تدورين في الشوارِع ليل نهار.

- أنا لا أدور في الشوارِع. أنت تعلمين جيدًا إلى أين أذهب.

- وما يدريني إلى أين تذهبين؟! تقولين أنكِ تذهبين لدروس الرسم.. وما أدراني أصلاً أنك تذهبين

لتلك الدروس؟ ثم ما فائدة تلك الشخبطة لامرأة في مثل سنك أولى بها أن تجلس في بيتها لتعبد ربها وتربي ابنتها، خصوصًا إذا كانت مطلقة وكلام الناس لا يرحم. والأدهى والأمر ذهابك مع أولئك النسوة الفاسدات في ذاك الذي تسمونه نادياً رياضياً.

- نسوة فاسدات؟!

- نعم. أولسن يحركن خصورهن ومؤخراتهن أمام بعضهن البعض بحركات راقصة خليعة؟!

- كلنا هناك نساء يا أمي!

- وما معنى أن تكُن جميعًا نساء؟ الشيطان شاطر! أنا نفسي البارحة كنت أشاهد برنامج الدكتورة "فوزية الدريع" على التلفاز، وسمعت الاختصاصية الاجتماعية السعودية التي استضافتها تنصح

الأمهات بعدم السماح لبناتهن حضور مثل هكذا تجمعات مشبوهة.

- تجمعات مشبوهة؟! إن مجرد انفراد تلك المرأة المريضة بنفسها في حمام بيتها يُعتبر تجمعًا مشبوهًا!

وأكملتُ بخبث:

- ثم قولي لي؛ ما الذي يجعل سيدة أرملة في مثل سنك تشاهد برنامج "فوزية الدريع"؟!

ردت بارتباك:

- أنا؟! أنا كنت أشاهده لأنني الأم، كي أعرف كيف أحميكما أنتِ وشقيقك من رفاق السوء ومزالق الهوى.

قلت وأنا أصعد الدرج متجهة نحو غرفة سعيد:

- منذ الأسبوع القادم سأبدأ أنا بمشاهدة هذا البرنامج كي أعرف كيف أحمي ابنتي مستقبلاً من رفيقات السوء ومزالق الهوى.

جاءني صوتها محذرًا:

- والله يا سلوى لو فكرتِ مجرد تفكير بمشاهدة برامج الكبار تلك فلا أنا أمك ولا أعرفك.

غمغمت بصوت لا يمكنها سماعه:

- كلانا بحجم بغل وتريد حمايتنا من مزالق الهوى! متى سنكبر إذن؟ مع الحلقة الأخيرة من برنامج فوزية الدريع؟!

طرقت باب غرفة سعيد ثلاث طرقات خفيفة، وعندما لم أسمع جوابًا ألصقت أذني به في فضول يحاول اكتشاف ما يفعله بالداخل، ففوجئت بالباب الذي لم يكن موصدًا يُفتح من تلقاء ذاته فاضحًا مُحاولتي الصغيرة للتجسس، وجاء صوته يدعوني للدخول:

- تعالي يا سلوى.. الباب مفتوح.

حاولت ابتلاع ارتباكي وأنا أطل برأسي من فرجة الباب قائلة:

- طرقت الباب ولم أسمع منك ردًا. ظننتك نائمًا.

قال وهو ينزع سماعات حاسبه المحمول من على رأسه:

- كنت أنصت للموسيقا فلم أسمع الطرقات.

– لماذا ترتدي السماعات لسماع الموسيقى وأنت وحدك في غرفتك؟

ابتسم نصف ابتسامة ساخرة من جانب فمه قبل أن يجيب:

– لئلا أزعجكم، فبيتنا أشبه بمؤسسة ديكتاتورية للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وكل ما لا يتفق مع سياساته وأعرافه وتقاليده يدخل تحت تصنيف المنكرات!

كانت ضحكتي تغالب كلماتي وأنا أقول:

– ليس إلى هذا الحد!

– بل إلى هذا الحد وأكثر.. لكن لماذا تقفين عند الباب. تعالي واجلسي.

دخلت لأجلس على الكرسي المجاور لمكتبه وأنا أتجول ببصري على الرفوف المزدحمة بالكتب، وملصقات

اللوحات العالمية المقلدة على الجدار الملاصق للسرير، وكومة الأقراص المدمجة المتناثرة على مكتبه حيث مازالت شاشة حاسبه المحمول تعمل. قال قاطعاً حبل الصمت:

– منذ زمن طويل لم نجلس بمفردنا ونتحدث.

– عمَّ نتحدث؟

– عن أي شيء.. عن كُل شيء!

– أي شيء مثل ماذا؟

– مثل الحديث عن بيتنا وعنا.. عنكِ أنتِ مثلاً.

– عني أنا؟!

– نعم.. عنكِ أنتِ. أولستِ إنسانة؟ أليس في حياتك أحداث؟

– لا أعرف! ليس لدي ما أقوله.

- لا يوجد إنسان ليس لديه ما يقوله، لكن يوجد أشخاص لا يرغبون بقول شيء، أو يخشون الإفصاح عما يجب أن يُقال.

- حياتي تخلو مما يستحق القول.

- حتى الأطفال لديهم دائمًا ما يُمكن قوله. هل تعلمين أن "توتي" تأتي للتحدث معي كل يوم؟

تساءلت بدهشة:

- "توتي" ابنتي؟!

- وهل لدينا "توتي" غيرها في هذا البيت؟

- متى أتتك؟ لم تخبرني عن ذلك ولا مرة!

- وهل هي بحاجة لاستئذانك كي تتحدث مع خالها؟ إنها تأتي، تطرق الباب ببساطة، وتدخل في

أي وقت، وتجلس في أي مكان لتتحدث عن أي شيء. عن توم وجيري، فستانها الوردي الجديد، الدب القطني الذي اشتريته لها قبل أسبوع، والطبق الخزفي الذي انكسر بين يديك في المطبخ يوم الأربعاء الماضي.

لم أستطع إخفاء آثار الصدمة وأنا أعلق:

- يا إلهي.. إنها أشبه بوكالة أنباء صغيرة!
- لا داعي لهذا الهلع، فأنا لستُ رجلاً غريبًا.
- لم أقصد!
- ماذا كنتِ تقصدين إذن؟

عضضت طرف شفتي وأنا أحاول إيجاد كلمة تخرجني من هذا الموقف، ثم قلت بصوت شبه هامس:

- أنا آسفة.

- عمَّ تعتذرين ما دمتِ لم تقصدي شيئًا؟

- أعتذر عن إزعاجك دون قصد.

مرت لحظة صمت قصيرة اعتدل فيها عقد فيها ذراعيه وراء رأسه، وعاد بظهره على مقعده إلى الوراء باسترخاء قبل أن يقول برفق:

- ألا تُلاحظين أنكِ تقسين كثيرًا على نفسك؟

- أنا؟ كيف؟!

- كُلما حُشرتِ في زاوية حوار أو استجواب صعبة حاولتِ إنهاء الموضوعِ بإدانة نفسك فورًا للتخلص من إجراءات المُحاكمة حتى وإن كُنتِ بريئة. لاحظت هذا حتى في تعاملك مع والدتي خلال أكثر من موقف.

- على ذكر والدتي؛ يبدو أنها مستاءة اليوم منك.

- إنها مستاءة من أفعالي كل يوم. لم تأتِ بجديد!

- كانت تبكي وتتهمك بالعقوق وسوء الأدب قبل قليل، وأظن أن هذا الأسبوع لن يمر على خير ما لم تطيب خاطرها بكلمة.

قهقه بمرح وقال:

- لا تقلقي. هذه بركات إخباري إياها أنني سأسافر بعد غد. ستبكي قليلاً، تصرخ قليلاً، ثم تشتمني قليلاً، وتندب حظها قليلاً، وتهدأ أخيرًا كالعادة. المزعج في الأمر أنك أنتِ من ستتحملين نزواتها المعتادة تلك خلال اليومين التاليين لسفري.

- ولمَ تسافر؟ ابق معنا.

- لا أستطيع يا سلوى. العلاقة بيني وبين هذا البلد تشبه شعرة مُعاوية. إنها.. لا أدري كيف أصفها... إنها تشبه قول عبد المجيد في أغنيته: "يكرهك نصفي ونصفي فيك ذايب".

ابتسمت وأنا أقول بنغمة مُشاغبة:

- هذا الكلام كبيرٌ جدًا على أمثالي.
- أنتِ لم تُسافري من قبل، ألستِ كذلك؟
- بلى؛ في أحلامي الواسعة!
- ما رأيك أن نُسافر معًا في المرة القادمة؟
- ستُجن أمي لو سمعت ذلك!

- دعي أمرها لي. سأطلب منها السفر معنا وأتحداكِ إن لم تجديها وضعت حقائبها على الباب قبل موعد الرحلة بشهر!

ضحكنا طويلاً قبل أن يعود ليسألني:

- ما البلد الذي تحلمين بالسفر إليه؟

أجبت دون تفكير طويل:

- باريس..

- ولماذا باريس بالذات؟

لم أقل له أنني أحلم ليل نهار بباريس لأنها المكان الذي جاء منه يوسف، وأن أمنية قلبي هي المرور على كل شارعٍ مر فيه، وكل مطعم أكل فيه، وكل عمود نور رسم تحته إحدى لوحاته، وكل حجر لثمته خطواته، وكل فضاء

استنشق هواءه وأطلق فيه نفسًا من أنفاسه. لم أقل له أن قلبي يسافر مني كل ليلة ليركض حافيًا في شوارع باريس لعله يغتسل ببركات الأرض التي جاءنا منها آخر رسل معجزات الحُب، وأعاد إليه الإيمان والأمل بعد زحفه الموجع في صحراء لا تسخو إلا بالألم. رسمت ابتسامة متقنة على وجهي وأنا أعيد خصلة ناشزة من خصلات شعري إلى مكانها وراء أذني مطلقة كذبة اخترعتها للتو:

- **كنت دائمًا أسمع صديقاتي اللواتي زرنها يتحدثن عنها بإعجاب!**

- **وما أكثر ما أعجبهن هناك؟**

- **السوق..**

- **لا حول ولا قوة إلا بالله!**

– لا تقلق، سأزور بعض المتاحف المملة والأزقة ذات الرائحة العطنة كي أشاركك غرابة أطوارك المُعتادة.

– على ذكر المتاحف؛ كيف حال دروس الرسم معك؟

– جيدة.

– أرى أنكِ تتقدمين بسرعة. لوحة الدجاجة المشوية التي علقتِها على باب الثلاجة بالأمس كادت تدفعني لقرمشته!

– هل أستطيع أن أسألك سؤالاً؟

– وهل يحتاج السؤال بيننا إلى استئذان؟

– لماذا لا تتصرف معنا كما يتصرف بقية الرجال في بيوتهم؟ أعني.. لماذا لا تسألنا من أين جئنا وإلى

أين ذهبنا، ولا تمنعنا من الذهاب إلى السوق، أو تحاول التأكد من أسماء صديقاتي واحدة واحدة؟

بدا على ملامحه التي انطبعت عليها ابتسامة ساخرة شعورٌ بالطرافة قبل أن يسأل:

- **وهل تريدين مني فعل ذلك؟**

- **لالا..**

- **إن كنت تريدين مني ذلك فحبًا وكرامة، منذ الآن سأحاصر هاتفك المحمول، وأمنعك من الخروج أو الدخول، وأعتبرك جزءًا من ممتلكاتي الشخصية. فليس عندي أعز من تحقيق رغباتك الدفينة.**

- **كف عن التهريج وأجبني بصدق.**

- الصدق هو أن أولئك الرجال لا يتدخلون في خطوات نسائهم خوفًا عليهن كما يدعون، بل لأنهم يُدركون في قرارة أنفسهم أنهم ممن يُخاف منه على بنات خلق الله. أنا صادق جدًا مع نفسي يا سلوى، ولأنني أفهمها جيدًا لا أجد في نفسي حاجة لتقليد سيرة الأجداد مادمت أمتلك تجارب خاصة صنعت هذا الرجُل الذي هو أنا. لقد ولدنا، أنتِ وأنا، في البلد ذاته، والبيت ذاته، والأسرة ذاتها، وذات الأبوين، وتلقينا التربية ذاتها بكل ما فيها من قيم دينية وإنسانية ومجتمعية وعادات وتقاليد خاصة، هذا يعني أننا شخص واحد مُكرر في جسدين لولا تلك الصدفة التي جعلتك امرأة وجعلتني رجلاً، وإذا كان هناك شخص يستحق الخوف عليه من الخروجِ أو الدخول في هذا البيت فهو أنا، لأن كثرة الناس الذين أختلط بهم،

وتنوعهم، وتعدد التجارب الإنسانية التي أصادفها في الخارجِ تؤثر في شخصيتي أكثر منكِ بكثير. أما أنتِ فثمانية أعشار حياتك على الأقل قضيتها بين جُدران البيت، وبعد تلك الفترة التي مضت من حياتك لم يعُد من السهل أن يدخل عليها من هب ودب لتغيير قيمة فيها أو كسرها بسهولة. من جانبٍ آخر أنا لست رجلاً مزدوِج الشخصية؛ ولأنني كذلك فإنني أدرك أنني لستُ معصومًا. أنا أيضاً كانت لي أخطائي الكبرى التي وضعتني الحياة وغربة الأعوام الطويلة في مواجهتها واضطررت لارتكابها كي أكمل حياتي وأعيش، لهذا لا أجد لي الحق في تنصيب نفسي قاضيًا على أفعالك أو أفعال والدتي وأنا أعلم جيدًا أنكما أنقى ذيلاً مني.

– أغبط المرأة التي ستتزوجها..

– هي التي يجب أن تغبطك، لأنني لا أستطيع تطليقك أو التخلص منك!

(١٠)

هل تعرفون معنى أن يدخل الحُب على حياة مثخنة بالوحدة والوجع؟ أن يأتي ليوقد شمعة أملٍ صغيرة تبعث الدفء في أوصال حياة باردة، وتضيء أرجاء عتمة سنواتها الطويلة؟ حياة أقصى لذة فيها هي الأكل، ثم الأكل، ثم الأكل ثم لا شيء غير التفاصيل اليومية الرتيبة المفضية بالروح إلى الانطفاء، وتحوِّل الإنسان إلى تمثال مترهل يخلو من الإحساس بمذاق الحياة، لتعود مشحونة بالآمال والأحلام وجنون الرغبة في العيش. صارت أيامي شهية، والليالي تكتنز صورته المحبوبة ثم تكررها علي ببذخ أثناء نومي. البارحة مثلاً ظللنا طوال الحلم نرقص معاً على إيقاع أغنية هندية مجهولة المصدر، كنت أرقص مواكبة خطواته بخفة وكأنني ولدت بساقين تحترفان الرقص رغم أنني لم أرقص قبلها قط! بدا شعري طويلاً جدًا ولامعًا كبطلات الرسوم المتحركة اليابانية، وفستاني الأحمر بلون الكرز ينافس فساتين أميرات حكايات الأطفال في الأساطير الأوروبية

القديمة. حين هدأ الإيقاع، وصارت الحركة أبطأ، حاولت أن أقترب منه أكثر بخطوات خائفة، عندها ضمني إليه بحنان، وبدأ يمسد شعري بهدوء دون أن يقول شيئًا، فسقطت من عيني دمعة كبيرة قادرة لوحدها على ملء كوب كامل من الماء، انهمر على إثرها جدول غزير من الدموع، وبدأت الأرض تحتنا تغرق بماء الدمع المالح، ثم انطفأ الحلم باستيقاظي من النوم.

قد يكون في الكلام خلاصٌ من الألم الذي بدأ يأكلني في الأيام الأخيرة مخربًا مذاق اللذة، لكن الاعتراف بإطلاق زفرة من زفرات هذا الجحيم على لسان امرأة، مُطلقة، وأم مثلي في مجتمع يعتبر لفظ الحُب جريمة؛ أشبه ببطاقة دعوة لاغتيالي. لا أنكر أنني قاومتُ طويلاً، وحاكمتُ نفسي طويلاً، وبكيتُ ليالي طويلة، لكنني في النهاية لم أستطع كبح طوفان المشاعر التي استعمرت كياني حتى الثمالة. أعلم أن مجرد التفكير برجُلٍ غريب قد يكون خطيئة بحق تقاليد المجتمع، لكن هذه السعادة العارمة

الممزوجة بحزن عميق لا يعرف حدًا أشبه بمرضٍ لا علاج له، أشبه برائحة عطرٍ قوية تأتي من مكانٍ بعيدٍ لتجذبنا نحوها ببصيرة مغمضة، أشبه بموسيقى مسحورة تجرف أرواحنا بعنف نحو مصير واعد بالإذهال.

خلال نوبة من نوبات بكائي الطويل في عتمة غرفتي، أجتر هزائمي المعنوية الكبيرة منذ أيام طاعتي العمياء لطموحات أولئك الذين حاولوا تفصيل شخصيتي وفق مقاسات أذواقهم في طفولتي ومراهقتي، مرورًا بزواجي غير المكتمل، وأمومتي التي لا أستطيع اعتبارها مثالية، بدا وجه "يوسف" كنجمة يتيمة في سماء المستقبل، لكن شعورًا بالغًا بالخيبة انفجر مُضاعِفا إحساسي العميق بالفشل، واحتقار الذات التي تسبح بخوائها في عالم شاسع من أحلام يبدو أصغرها أكبر مني وأوسع من واقعي. ما جدوى أن تمتلئ بشخصٍ ما دون أن يتقاسم معك الأحلام والرغبات والنبضات؟ ما فائدة زحفك الموجع على صراط الشوق بأنفاس محبوسة خشية أن يقبض عليك المحبوب

متلبساً بالاقتراب منه بدلاً من ركضكما على هذا الصراط معاً بكفين متعانقتين؟ لماذا خذلني الحظ كعادته حين وقعت في حبه كالمسحورة منذ النظرة الأولى بدلاً من أن يوقعه هو في حُبي، ولماذا تدحرجتُ بعدها في حُبه كالمجانين دون أن يستطيع شم رائحة اشتعال قلبي طوال الشهور الماضية رغم كل الجهد الذي بذلتُه ليراني؟ إلى هذا الحد أنا لا أحد، لا شيء، ذرة تافهة تائهة في فضاء العدم اللامنظور؟! لماذا يبدو دائمًا قويًا، براقًا، متألقًا، واثق النفس مثل نبي تشرق ابتسامته كل يوم على هذا الكون رسالة عظيمة بينما أبدو أمام نفسي خائبة ضعيفة، كقملةٍ سحقها كعبُ حذاء الزمن ومضى عنها دون التفات؟ لماذا وقفت أمامه تلك الوقفة الذليلة الصفراء في ذاك المشهد الذي قصم ظهر مقدرتي على التحمل، وبدأ بي رحلة جديدة مع العذاب، وأيقظ كل أحقادي الغافية ضد الرجال؟!

كان يومًا من أيام الفصول الأربعة في مدينتنا الرمادية، من تلك الأيام التي تُشمس وتمطر وتتساقط فيها أوراق الخريف. اختارت السماء الساعة التي خرجت فيها لتمطر قبل خروجي لدرس الرسم بغزارة وعناد لا ينقطع، واخترت أن أغافل تحذيرات صوت والدتي المرتفع وأخرج لأراه رغم أنف غزارة المطر، والشوارع الموحلة المزدحمة بإطارات سيارات تُحرق، وأذرع تتوعد، ورؤوس تهتف باسم فلان وضد فلان وفلان. وأنا أشق طريقي بين تلك العيون التي يتأجج فيها اتقاد الغضب كلما عانق المطر الشرر، وكل ما أريده أن أتجاوز شعارات "يعيش" و "يسقط" لأصل إلى العينين الوحيدتين اللتين تحكمان قلبي قبل فوات الأوان.

تردد صوت كعب حذائي على الأرض الخشبية لقاعة المرسم فانتابتني قشعريرة برودة انبثقت من داخلي. للمرة الأولى أرى هذه القاعة خاوية من المتدربين، تتسلل إليها كآبة الغيوم الرمادية من وراء نوافذها الكبيرة بدلاً من

انسياب ضوء الشمس الساطع ليسيل على زجاج المرايا ببذخ آسر. شعرت وأنا أضيء المصابيح الكهربائية بشيء يشبه السُّلطة المُطلقة، الملوكية، الهيمنة التامة على المكان والزمان اللذان احتللتهما لوحدي بشجاعة حين تغيب الجميع واهبين المطر وهياج الشارع فرصة الانتصار على حقهم في القدوم. وشيئًا فشيئًا كان شعور دافئ بالتعافي يسري في أوصالي وأنا أتحد بكل كياني مع لوحتي التي شرعت بإكمالها، ونسيت بالتئام عالمي الداخلي كل خراب عالمي الخارجي المثخن بالوجع.

فجأة؛ هطلت رائحته جاذبة القلب بعنف هادئ، فرفعت رأسي لتواجهني صورته المرتسمة على المرآة وأراه عاقداً ذراعيه على صدره، مستندًا على باب القاعة المفتوح بطوله الأنيق. واصلت تحريك فرشاتي على اللوحة متظاهرة بعدم رؤيتي له كي أعيد ترتيب أعماقي المرتبكة دائمًا في مواجهته، لكنه اقترب مني بخطوات مسموعة لا تسمح

بمزيد من التغافل، ووقف ناظرًا لرسمي بصمت قبل أن يقول بصوت بلاستيكي جامد:

- ألا تظنين أن الشجرة المرسومة في الجهة اليسرى تفسد توازن اللوحة؟

أجبت دون تفكير:

- نعم.. معك حق.

- وألا تلاحظين أن ألوان اللوحة كلها غير ملائمة، وتعطي إحساسًا مزعجًا؟

- نعم.. صحيح. مزعجة جدًا.

- لكنني يبدو لي أن الألوان رائعة، وتهب الناظر إحساسًا بالدفء.

- أكيد.. هي كذلك. دافئة جدًا.

– لا؛ ليست كذلك. إنها لوحة مقرفة تمامًا، وفاشلة بجميع المقاييس.

– فعلاً، أنا أيضًا أقول ذلك.

– ما رأيك أن تعيدي رسمها؟

– سأعيده..

– أو.. لا تعيدي الرسم، إنها لوحة رائعة، سأعلقها في واجهة المعرض. ما رأيك؟

– رائع جدًا..

وإذا به يرفع اللوحة ويهوي بها على حد الطاولة الخشبية لتنكسر إلى نصفين، ثم يفتح النافذة ملقياً ببقاياها إلى الخارِج قبل أن يقول ببرود:

– ما رأيك الآن؟

أجبت بارتباك:

– لا أدري!

– ما معنى لا تدرين؟

– لا أدري..

نظر في عيني نظرة عميقة للحظات ثم قال:

– لا تعودي إلى مرسمي مرة ثانية.

سألت بذهول:

– لماذا؟

– أنتِ غير قادرة على اتخاذ أي قرار، غير قادرة على الدفاعِ عن شخصيتك ورؤاك الفنية، غير

قادرة على أن تكوني "أنتِ" ما أنتِ بدلاً من أن تكوني ظلاً مشوهًا لشخصية ضعيفة، وربما غير موجودة. آسف؛ لكنني لا أستطيع المشاركة في مؤامرة ضد الفن الحقيقي، الفن الثائر على كل صور الضعف والخذلان، بتعليمك الرسم وتحويلك إلى عنصر دخيل على الفن كمئات الدخلاء في هذا البلد.

شعرت أن ساقاي بدأتا بالذوبان، وسمعت صوت تنفسي خشنًا متحشرجًا كرياح تصفر بين جدران مغارة مهجورة. أردت أن أركع، أبكي، أتوسل، أن أقول له: "لا تبعدني عنك.. لا تلعني من فردوس القرب منك.. لا تتركني هكذا لوحدي". لكن قدماي تحركتا بطريقة آلية نحو الكرسي الذي كنت أجلس عليه لأحمل حقيبتي، وأخرج من المرسم بصمت. وفي الشارع انفجر بركان القهر الذي في صدري دموعًا ساخنة استغرقت طريق العودة كله.

(١١)

واجهت الفشل مرات كثيرة في حياتي، لكنني لم أشعر بنفسي عزلاء تمامًا في مواجهته مثل هذه المرة. وحيدة، مكسورة، ومجبرة على اتخاذ قرار يجعلني أسترد نفسي قبل أن أنتهي. لا يهمني أن أموت، ما يهمني هو ما قد يحدث لابنتي بعد موتي، فارتباط حياة إنسان تحبه بحياتك يحرمك من رفاهية الرغبة في الموت، والتفكير فيه، واللجوء إليه حين تسد طرق الحياة في وجهك. كل ما أريده اليوم هو أن أشفى من حبه بأي طريقة، أريد أن أكف عن التفكير فيه في يقظتي وأحلامي، ورؤية صورته في كؤوس شرابي وأطباق طعامي. أريد التخلص من تلك الوخزة الموجعة التي ينبض بها قلبي كلما سمعت اسماً يماثل اسمه، وأن يتوقف بصري عن رؤيته في عشرات الوجوه المحيطة بي في كل حشد أجتازه. ركعت على ركبتي في غرفتي المظلمة وصليت بكل حرقة روحي قائلة: "يا الله.. يا مالك زمام هذا السحر الأزلي الذي يسمونه

الحُب، خلصني من حبه ما دمت لم تملأ كيانه بحبي".

وبكيت، ثم بكيت أكثر. بكيت من كل شيء وعلى كل شيء، على أنني فاشلة في كل شيء، على أن يوسف صار يحتقرني، على أن والدي مات وتركني، على أنني تزوجت بسافل حولني إلى مسخ، على أنني تركت دراستي الجامعية، على أنني بلا صديقات، وأنني مهملة منسية لا يفكر بي أحد، وأن كل وقتي وعنائي لأجعل من نفسي تلك الإنسانة المثقفة الجميلة القادرة على لفت انتباه يوسف لم يقدم في علاقتي به أو يؤخر، وفي النهاية تسببت بقطع الشعرة اليتيمة التي تربط بيني وبينه دون أن أستطيع إصلاح الأمر في لحظته ولو بكلمة.

لم يكن مخطئاً في كل كلمة تفوه بها، فأنا أعلم بيني وبين نفسي أنني امرأة ضعيفة الشخصية تافهة الوجود، وما كنت لأتأذى لو اكتشف تلك الحقيقة أي شخص غيره، ولو كشفها بتلك اللهجة القاسية أي شخص غيره، لكن كلمة قاسية واحدة من إنسان تذوب فيه غرامًا تساوي ألف

طعنة مسمومة في خاصرتك من شخص لم تتشبث به روحك بما يُشبه الجنون. ظلت أصداء كلماته تتردد بين جدران جمجمتي مرة بعد مرة طوال الليلتين التاليتين دون فاصل قصير من النوم، ودون أي طعام، وفي الليلة الثالثة قررت أن أستسلم، أن أنسى كل شيء وأنام بعد غروب الشمس مباشرة. وفي اليوم التالي انطلقت نحو شاطئ البحر بعد تأكدي من ركوب ابنتي حافلتها المدرسية مُباشرة. لم أكُن قد مشطت شعري أو استبدلتُ ثيابي أو أكلتُ شيئًا. اشتريت كوب شاي كبير بالحليب الساخن وجلست أرتشفه على الشاطئ وأنا أفكر بصفاء عميق أمام تكسر الأمواج الشفافة، ثم أخرجتُ من حقيبتي المشحونة بالفوضى قلمًا وورقة مناديل وبدأتُ أكتب:

محاولات للنسيان

١– لن أمر أبدًا على موقع المرسم.

٢- كلما تذكرته سأطرد اسمه وصورته على الفور بالتفكير في أي شيء آخر، أو عمل شيء آخر.

٣- سأركز على الاهتمام بنفسي وابنتي فقط، وليذهب العالم وخصوصاً رجاله إلى الجحيم.

٤- سأكمل دراستي الجامعية.

٥- سأبحث بجدية عن عمل.

٦- منذ اللحظة سلوى القديمة ماتت.. ماتت.. ماتت. وسلوى الجديدة بشكلها الجديد وروحها الجديدة قادمة.

وضعت القلم والمنديل الورقي في حقيبتي، ونهضت رامقة البحر بعينين نصف مغمضتين وأنا أهمس بنبرة تجمع فيها كل حقدي على حياتي السابقة:

– شئت أم أبيت.. سلوى الجديدة قادمة لافتراسك أيها العالم الظالم.

(١٢)

كان الوقوف تحت رذاذ ماء الحمام الدافئ أول ما فعلته بعد وصولي إلى البيت. أغمضت عيني مستسلمة لانسياب الماء وأنا أحاول عدم التفكير بأي شيء، لكن عشرات الأفكار والذكريات هجمت على ذهني بعد أعوام من التناسي والتجاهُل، واختلطت دموعي الساخنة بقطرات الماء المنسابة على وجهي. فكرت بأنني كنت حالمة وغبية أكثر مما يجب طوال حياتي السابقة، وأن كل الخراب الذي حدث في حياتي كان نتيجة تعلقي الدائم برجل ما، أو توقعي الحماية من رجُلٍ ما، في النهاية خذلني أبي بسوء اختياره لزوجي، وخذلني بموته وأنا في ذروة احتياجي إليه، وخذلني أخي بأنانيته وسفره الدائم، وخذلني زوجي السابق بسكره الدائم وتعدد علاقاته القذرة، وأخيراً خذلتني القشة الأخيرة التي تعلَّق بها قلبي الغبي حين طردني يوسف.

منذ اليوم لم أعد بحاجة لأحد ولا أريد رجلاً في حياتي، أنا بالغة وعاقلة وأستطيع حماية نفسي بنفسي. مشاعري الغبية يجب أن أضرم النار فيها وأنساها لأنها السر في ضعفي. سمعت مرة في حوار إذاعي أننا لا نقع في غرام شخص إلا إذا كنا ضعفاء من الداخل، لذا تحاول مشاعرنا إشباع هذا الضعف بالتصاقنا بمن نظنه أقوى أو أرفع منا. يومها ضحكت من هذا الكلام وسخرت منه في داخلي كثيرًا، واليوم أشفق على تلك الغبية التي كنتها من قبل؛ تلك التي كانت تصدق خزعبلات الحب ورومانسيات الأفلام العاطفية الكاذبة.

تناولت إفطارًا خفيفاً، وانطلقت بعده إلى مركز تجميلي المفضل لأطلب من خبيرة التجميل هناك أن تستبدل شكلي كله بشكل جديد يجعلني أبدو أجمل، ولم أعترف لها أنني أريد بهذا نسف امرأة أكرهها وأحتقرها وأعتبرها سببًا في فشلي الكبير. بعد قص شعري وصبغه وتغيير رسمة حواجبي أعطتني موعدًا بعد ثلاثة أيام لتنظيف البشرة

وفرد الشعر. لم أضيع وقتاً وانطلقت نحو النادي الرياضي، بعد ساعتين من التمارين غادرته نحو مبنى الجامعة العربية المفتوحة لسؤالهم عن شروط الانتساب إلى الجامعة والوثائق المطلوبة للتقدم، وفي طريق عودتي من هناك توقفت عند أقرب قرطاسية واشتريت دفترًا أنيقاً لأكتب فيه مذكرات حياتي الجديدة كل يوم. عدت إلى البيت، و بعد الغداء جمعتُ شعري كله لأربطه ورائي بإحكام، وأمسكت بقلم أحمر عريض ونسخة الأسبوع من صحيفة "الوسيلة" الإعلانية لأحدد فرص العمل التي تناسبني وأتصل بالمعلنين. الرقم الأول لم يُجب، وقال صاحب الإعلان الثاني أن الوظيفة قد تم شغلها مذ يوم أمس، أما صاحب الإعلان الثالث فضيع ثلث ساعة من وقتي قبل أن أكتشف أن وحدته الشديدة في حياته دفعته لنشر الإعلان كي يثرثر مع المُتصلين لا أكثر، والرابع كان مُتخصصًا بمُعاكسة النساء ومُغازلة من هبت ودبت، والخامس كان يبحث عن "زوجة" فنشر إعلانًا يطلب "موظفة" بدلاً من نشره في

صفحة الباحثين عن أنصافهم الثانية... أخيرًا رد السادس بصوت إداري رزين:

- لا بأس، أرسلي سيرتك الذاتية إلى بريدنا الإلكتروني، وسنتصل بك لاحقًا.

لم أصدق أنهم جادون، لكنني أرسلت السيرة الذاتية كي لا أضطر للوم نفسي إذا لم أجد غيرها، وأرسلت معها عشرات السير الذاتية إلى كل الجهات التي سجلت طلباً لموظفات على مواقع التوظيف الإلكترونية، كما قررت أن أطلب مساعدة سعيد في إيجاد عمل ملائم لي عبر علاقاته الواسعة بعد عودته من السفر. لكن الصوت الإداري الرزين اتصل مرة ثانية بعد ثلاثة أيام ليقول:

- إن كُنتِ حتى اليوم مهتمة بالوظيفة التي أعلنّا عنها فيمكنك القدوم لإجراء المُقابلة الشخصية في الخامسة من مساء الغد.

في الخامسة وخمس دقائق من مساء اليوم التالي كنت جالسة إلى مكتب المدير في مقهى "روجينا" الشاهق بكبرياء في قلب المدينة. وبدأ الاستجواب بنبرة مُتعالية:

- **لماذا لم تكملي دراستك الجامعية؟**
- **لم يطلب إعلانكم مؤهلات جامعية!**
- **هل أنتِ متزوجة؟**
- **مطلقة.**
- **لديكِ أطفال؟**
- **واحدة.**
- **نحن في الغالب لا نوظف الأمهات، لأن تجاربنا مع الموظفات الأمهات غير طيبة.**
- **مثلاً؟**

- يطلبن ساعات رضاعة.

- طفلتي في السابعة.

- ويطلبن الخروج قبل انقضاء ساعات الدوام لإحضار الأطفال من المدرسة.

- طفلتي ستحضرها إلى البيت حافلة المدرسة.

- يشردن كثيراً للتفكير بأسرهن.

- لن أفكر في مكان العمل بغير العمل.

- يثرثرن كثيرًا مع صغارهن بواسطة هاتف العمل.

- يمكنكم وضع قفل على جهاز الهاتف، وسأكسر هاتفي المحمول أمامك الآن.

انفجر صاحب البدلة الأنيقة الجالس أمامي بالضحك ثم قال دون أن تخبو ابتسامته:

– يعجبني هذا النوعِ من الحماسة يا سيدة سلوى. يمكنك استلام العمل لدينا منذ الغد، لكن يجب أن تعلمي أن الثلاثة أشهر الأولى فترة تجربة، ولنا الحق في صرفك إن لم تثبتي استحقاقك للوظيفة.

(١٣)

عاد كل شيء عاديًا، رماديًا، على خط محايد بين الأسود والأبيض دون ألوان أخرى. كبرت من الداخل عشرين سنة في أسبوعين وأنا أعمل كآلة، وأخطط جداول تنظيم وقتي وتنظيم ميزانيتي وأهدافي كحاسب آلي. في أحيان نادرة تستيقظ المرأة المحبوسة داخلي وتصرخ جوعاً للحنان فأسارع بتكميمها منشغلة بأي شيء، ومتمنية بكل حقدي عليها أن تموت إلى الأبد فأنسى بموتها أكبر أحزاني. حتى في أقصى لحظات انهماكي بعملي في المقهى، حين أستلم النقود وأرجع الباقي بصحبة الفاتورة؛ كانت تلك المرأة تنتفض وجعًا حين تسمع ضحكة لها نغمة ضحكات "يوسف" على إحدى طاولات الزبائن، فتتداعى شجاعتي ولا أستطيع منع نفسي من الالتفات لأكتشف أنه لم يكن هو.

بعد أسبوعين آخرين قال لي رئيسي وأنا أوقع سند قبض راتبي الأول أنه سعيد جدًا بنشاطي وانتظامي، وحين رفعت بصري لأقول "شكرًا" رأيت في عينيه نظرة انجذاب وقحة رأيت مثيلاتها في عيون عشرات الزبائن خلال هذا الشهر. أردت أن أصعد على رأس الطاولة وأكسر جهاز الهاتف على رأسه وأنا أقول: "كلكم هكذا.. كلكم سفلة ولا تهتمون إلا لمصالحكم فقط"، لكنني رسمت على وجهي ابتسامة عريضة وقلت: "هذا من بعض ما لديكم يا سيدي". وقررت أن أستمر بحفر قوامي وتدليل بشرتي وإنفاق ثلثي راتبي على ملابسي كي أعذب أكبر قدر ممكن من أولئك الذباب دون أن أفتح بابي للاقتراب.

مساء اليوم ذاته طرق باب غرفتي برفق وأنا أمشط شعري أمام منضدة التجميل، فرددت بعفوية:

– ادخلي يا توتي.. الباب مفتوح.

فتح الباب قليلاً ليطل منه رأس "سعيد" قائلاً:

– وغير "توتي".. ألا يرحب بهم في هذه الغرفة؟

قلت بدهشة تعانقها نبرة سرور صادق:

– سعيد!! متى عدت من السفر؟

أشار لي بعدم النهوض وحرك كرسياً من زاوية الغرفة للجلوس بقربي، ثم قبَّل جبيني على غير المعتاد، قبل أن يجلس ويقول:

– جئت البارحة.

– ما بالك اليوم تبدو حنونًا أكثر من الحد الطبيعي؟ هل رأيت في نومك أنني سأموت؟

– غبية وثقيلة الدم كعادتك، ويبدو أن حالتك ازدادت سوءاً لأنك فقدت الكثير من مخك مع ما فقدته من وزن.

– هل أبدو حقاً رشيقة؟

– بل نحيلة.

– بشعة؟

– من الخارج تبدين جميلة.

– ومن الداخل؟

– لا أعلم الغيب.

التفت إلى المرآة وبدأت أمشط خصلات شعري ببطء كي لا أنظر إلى عينيه فأنهار باكية، وقلت:

– افتقدت ثقل دمك كثيرًا خلال الشهر الماضي.

سأل بنبرة هادئة:

– سمعت أنكِ بدأتِ تعملين!

- نعم.

- هل تحتاجين إلى نقود؟

- لا.

- إذن لماذا تعملين؟

- معظم خلق الله يعملون!

- لأنهم يحتاجون العمل.

- أنا أيضاً أحتاجه، وربما أكثر من غيري.

- لأجل ماذا؟

أجبت ببرود كاذب:

- لأملأ وقت فراغي!

- للتو اكتشفتِ أن لكِ وقت فراغ؟!

انفجرت منفعلة:

– أنا حُرة.. ما شأنك أنت بي؟!

سأل مُهاجمًا:

– لماذا تركتِ دروس الرسم؟

– من أين عرفت؟

– من يوسف، اليوم أخبرني حين زرته لأسلم عليه في المرسم.

– إذن اسأله هو عن السبب!

مرت دقيقة صمت تشاغلت فيها بتمشيط شعري، وتشاغلت أصابعه بالعبث بطرف مجلة الأزياء الموضوعة على طاولة الزينة. ثم قال:

- طلب مني يوسف أن أبلغك اعتذاره الكبير، وهو يدعوك للعودة إلى دروس الرسم مجانًا هذه المرة.

- اشكره على ذوقه، وقل له أن وقتي لم يعُد يتسع لذلك.

- سلوى.. لا تكوني عنيدة وقاسية إلى هذا الحد!

- أعتقد أن هذا الأمر يخصني وحدي.

- لا.. لا يخصك وحدك. بل يخصك، ويخص يوسف، ويخص كل فرد في بيتنا وكل إنسان يهتم لشأنك. أنا لا أستطيع تركك تفسدين حياتك للمرة الثانية وأنا أتفرج صامتًا، يكفي أنني مازلت عاجزًا حتى اليوم عن إخراس ضميري لأنني لم أحاول إنقاذك في الماضي.

- ونِعم الضمير الحي!

- لا أنكر أنني كنت في تلك الفترة أنانيًا، لكن عذري أنني كنت أناضل لصنع نفسي، وكنت أنفق كل قوتي وكل مجهودي لتحقيق هذا الهدف الذي كان صعبًا في حينها، ولهذا لم أجد في داخلي القوة لمساعدة مخلوق آخر. قد لا أستطيع التكفير عن أنانيتي بإصلاح ما حدث لأن الرجوع بالزمن سنوات إلى الوراء مستحيل، وليس لضميري عزاء إلا في مساعدتك لتعيشي اليوم أفضل حياة تستحقينها.

قلت بصوت بارد:

- شكرًا لك.

- أرجوكِ سامحيه يا سلوى.. هذا صديقي وأنا أعرفه جيدًا، إنه غبي فيما يتعلق بالنساء. الحقيقة أننا

نحن الرجال كلنا نتحول في لحظة ما إلى أغبياء في تلك المسائل المتعلقة بكن مهما كنا خبراء، ومهما اجتزنا من تجارب. جميعنا نريد أن نفرض آراءنا، أن نقص ونلصق في شخصية المرأة التي نهتم لها، وأن نبدو بارعين وممسكين بزمام السلطة، عندها ينتهي بنا المطاف إلى خسارة كل شيء.

لم أستطع تمالك أعصابي فألقيت بالمشط ليرتطم بجدار بعيد وانفجرت صارخة بين دموعي:

– كلكم هكذا، كلكم سفلة، كلكم حثالة، كلكم تريدون أن تخطئوا وتخطئوا ثم تخطئوا بحقنا ثم تتباكون أمامنا طالبين أن نسامحكم. هكذا.. بكل بساطة! وإذا سامحناكم ما الذي يعوض ساعات البكاء، والوجع، والانهيارات المتتالية، وفقد الثقة

بالذات؟ هل أنتم إلى هذا الحد بلا إحساس؟ هل قدَّت قلوبكم من الصخر؟

قدم لي منديلاً ورقيًا وقال بصوت دافئ:

- **جيدٌ أنكِ عبرتِ أخيرًا عما بداخلك بعد شهر من الصبر. سأتركك الآن بمفردك لتنامي قليلاً، وغدًا سنتحدث مرة ثانية.**

(١٤)

صباح اليوم التالي انزلقت بخطوات مكتومة على الدرج كي أخرج إلى العمل قبل أن يراني "سعيد" ويكمل معي حديث البارحة، لكنني سمعت صوته قادمًا من جهة طاولة الطعام:

– انتظري يا سلوى.. سأوصلك.

– لا داعي لذلك.. أكمل فطورك.

مسح فمه بمنديل ورقي وهو ينهض من على الطاولة ثم يقترب مني قائلاً:

– لقد انتهيت. أنا خارج في جميع الأحوال، وسأوصلك على طريقي لأنني أحتاج أخذ السيارة معي فيما بعد.

كنت مرهقة جدًا من الداخل ولم أشأ أن أجادل. أدار محرك السيارة وقلبي يرتجف خشية أن يبدأ بفتح حوار لا أحب الخوض فيه، لكنه فاجأني بأنه لم يفعل، كما فاجأني باختيار طريق الإشارة الطويل الذي أختاره كل يوم بدلاً من طريق الدوار المختصر الذي لا بد وأن يمر على مرسم "يوسف". حين وصلنا سألني برفق:

- **هل تتغدين هنا أم في الخارج؟**
- **يصرف لنا المقهى وجبة غداء كل يوم.**
- **إذن سآتي لأخذك إلى البيت في المساء.**

أردت أن أشكره على كل شيء، على أنه أوصلني بهدوء، وأنه لم يُخفني بأي أسئلة، ولم يُرهقني في الجدال ويفسد مزاجي أكثر قبل العمل، والأهم؛ أنه عرف بعدم رغبتي في

المرور على شارعِ مرسم يوسف دون أن أفصح عن ذلك. لكن أقصى ما تمخضت عنه حنجرتي بصوت شبه هامس:

– إلى اللقاء.

في المساء عاد مرة ثانية، وأوصلني إلى البيت دون أن ينبس ببنت شفة، وفي اليومِ التالي تكرر الأمر ذاته في الصباحِ، لكنني صرت أقل خوفاً وأكثر رغبة في مشاطرته الطريق، وخلال طريق العودة حاول أن يفتحِ حوارًا عامًا سائلاً:

– هل سمعتِ آخر أخبار الانتخابات الأمريكية؟

– لا..

– إنها حديث الشارعِ هذه الأيام.

– لا تهمني.. لماذا أهتم مادمت لا أعيش هناك؟!

- آه.. أنتِ إذن براغماتية!

- لا.. أنا ملوخيَّة!!

انفجر ضاحكًا إلى حدٍ كاد معه أن يصطدم بالسيارة التي أمامنا، ثم علَّق بعد أن التقط أنفاسه:

- صدقتِ.. فالأمر في كلتا الحالتين لا يعدو عن كونه مطبخًا كبيرًا.

شعرتُ بسعادة تضيء الظلمة في حجرات قلبي حين أدركتُ أنه يفعل كل ذلك لأجلي لأنه مهتم بي حقاً هذه المرة. كان يريد بإيصالي حُجة صغيرة لنقطع معاً بمفردنا وقتاً يهبني فرصة للتحدث حين أشاء، ودون خوف. عندها شعرت باطمئنان كبير، وأن الأمور في النهاية لن تسير إلا كما أشاء دون ضغوطات من مخلوق، ودون أن أفقد شعوري بالحماية والأمان.

في الثامنة من مساء اليوم ذاته رن هاتفي المحمول برقم غير مسجل، وملأني الصوت الرجولي الذي جاءني من الطرف الآخر بأحاسيس متضاربة شلت مقدرتي على التفكير في اللحظات الأولى. بدأ قلبي يدق بعنف وهو يستقبل صوت "يوسف"، ووجدت شجاعتي تتداعى، ومقدرتي على المقاومة تتقازم، فجلست على أقرب مقعد شاكرة الله لأن المُتصل لا يراني في هذه اللحظات.. اتضح صوته أكثر حين تمكنت أخيرًا من تمالك نفسي فسمعته يسأل برفق غير معتاد:

– كيف حالك؟

– من أين جئت برقم هاتفي؟

– أخذته من بيانات تسجيلك في دورة الرسم الأولى. هل أزعجكِ اتصالي؟

– لم أقُل ذلك!

– هل رسمتِ شيئًا جديدًا؟

– لا..

– لماذا؟

قلت بنبرة تشوبها سخرية متعمدة:

– اكتشفتُ أنني لا أصلح للفن!

قال بنبرة صادقة:

– أنا آسف جدًا على ما قلته لكِ في المرة الأخيرة.

– لا داعي للأسف.

– الدورة القادمة ستبدأ بعد أسبوع، وستكون لكِ مجانًا. لن آخذ منكِ لوحة لقاء الدروس، وتستطيعين اختيار ما تشائين من اللوحات المعلقة في المرسم بدلاً عن اللوحة التي كسرتها.

– ما ذهب لا يمكن تعويضه.

- إن لم تعجبك أي لوحة أخرى سأرسُم لكِ بنفسي لوحة مماثلة لتلك اللوحة.

لا أنكر أنني فوجئت بسماعه ضعيفاً، ومُعتذرًا، ومنكسرًا للمرة الأولى، وقابلاً للتنازل إلى هذا الحد من الكرم الذي يشبه التضحية بالنسبة لشخصيته الأبية القوية. فانتابني إشفاق جعلني أخفف من جفاف لهجتي وأنا أجيب:

- شكرًا لك، لكن وقتي لم يعد يسمح لي بالمزيد من الدروس.

- حاولي أن تأتي. الجميع هنا يفتقدون وجودك، حتى "سيرينا" سألتني عن سر غيابك المفاجئ.

- سيرينا؟!

- نعم؛ ابنة أختي "سيرينا". ربما لا تتذكرينها، تلك الفتاة التي تقلب حرف الراء إلى غين حين تتكلم.

– آه.. تذكرتها. قصدك "سوسو"؟!

أطلق ضحكة قصيرة قبل أن يجيب:

– نعم، أناديها "سوسو" بحُكم العادة لأنها معي معظم الأوقات. وعندما اكتشفت أختي إصابتها بمرض السرطان أرسلت "سوسو" إلى مدرسة داخلية في فرنسا كي لا تؤثر وفاتها على حياة ابنتها كثيرًا، خصوصاً وأن والدها كان يسافر باستمرار لأجل العمل. في فرنسا لم يكن لها أحد غيري، وحين قررت العودة عادت معي وانتسبت لأكاديمية الفنون الإنجليزية هنا. لهذا تجدين كلامها خليطاً بين الفرنسية والعربية والإنجليزية. وبالمناسبة؛ هي أيضًا انتبهت إلى التطور السريع في أسلوبك الفني مثلما انتبهت أنا له.

قلت بلهجة استنكار توحي بعدم التصديق:

- أنت.. انتبهت؟!

- نعم.

- أشك في ذلك!

- لماذا؟

- لأنك لم تفصح عنه ولا مرة. كنت أراك تشجع زملائي على أقل خطوة، أما أنا فكنت تتناول جهدي الذي أبذل أقصاه ببرود شديد!

- أنا لم ألاحظ أنكِ تقدمتِ في الرسم فقط؛ بل لاحظت أنكِ الوحيدة التي تأتين قبل موعد الدرس بأكثر من نصف ساعة، وتغادرين بعده بأكثر من ساعة، وأنكِ كنتِ تتسللين خلال تلك الساعة

لاختلاس النظر من بابها إلى باب الغرفة التي أجلس فيها أكثر من مرة، والوحيدة التي ناضلت للوصول في آخر يوم رأيتكِ فيه رغم سوء الأوضاع في الشارعِ، وأن وزنكِ نقص بمقدار الربعِ، وخديكِ تورَّدا، وصرت تقصين أظافرك مربعة بعد أن كانت دائرية، وأن الإصبع الخنصر في يدك اليسرى تعرض لحرق قبل أسبوعين من انقطاعك عن القدوم.. هل هذا يكفي كي يؤكد على أنني كنت ملتفتًا لكِ ومهتمًا بك أم أكمل وأقول أمور أخرى قد يُحرجك سماعها؟

– ....

– أنتِ لم تقفلي الخط على صوتي.. أليس كذلك؟

قلت بصوت مبحوحٍ من أثر الصدمة:

– لا..

– قولي شيئًا إذن.

– لماذا كنت قاسيًا معي إذن؟

– سلوى.. كل إنسان منا لديه ملفات سوداء في حياته متخمة بشهادات الفشل، لكن هناك من هم حساسون للفشل أكثر من سواهم، وأنا من هؤلاء. أنا فقدت في حياتي كل شيء تقريبًا منذ طفولتي، واستمرت رحلة الفقد والفشل طوال عمري، والغربة الطويلة هي الأخرى لم تقصر في تحويلي إلى شخص يندر أن يلتصق بشيء، أو تسمح له نفسه بالتعلق بشيء. هل تعلمين لماذا يظنني بعض الناس فناناً كبيراً؟ لأنني إنسان فاشل.. شبح إنسان.. بقايا إنسان.. ميت يسير على قدمين، لهذا أغرق وقتي كله بين الألوان واللوحات كي

أنسى أحزاني. لم أكُن أريد أن أورطكِ مع رجل شبه يائس وبلا مستقبل طبيعي مستقر مثلي، لكن في النهاية خرجت مشاعري عن سيطرتي، فقررت أن أدع "المقادير تجري في أعنّتها" وليكُن بعد ذلك ما يكون.

- ....

- هاقد سكتِّ مرة ثانية!

- ليس عندي ما أقوله.

- هل ستأتين لاستكمال دروس الرسم؟

- لا أدري.

- بحق الله لا تقولي "لا أدري"!

- لا أدري.. لا أدري.. لا أدري.. لا أدري ونصف.. لا أدري وثلاثة أرباع. أنا إنسانة ولستُ امرأة آلية، ومن حقي أن أفكر، ثم أدري، ثم أقرر.. وكي أقرر أريدك أن تقول لي الآن وفورًا: أيُعجبك هذا أم لا يُعجبك؟

أجاب بعد لحظة صمت:

- لا أدري!

(١٥)

أعود إلى المرسم أو لا أعود؛ تلك هي المسألة. المرأة المجنونة المكممة في صدري تناضل للتخلص من وثاقها والركض إليه دون تفكير، والمرأة العاقلة التي تحافظ على توازني الخارجي تصر على تذكيري بألم الجرح الجديد وما سبقه من جروح قديمة متراكمة لم يعبأ بها أحد. أريده بشدة؛ لكنني خائفة. ضربة أخرى على رأس القلب تكفي لقتله تماماً وقتلي على الفور. الحب شديد الإغراء للجبناء والشجعان على حد سواء، لكن ولوج عالمه يبقى رحلة مجهولة شديدة الخطورة مهما كبرنا. فكرت كثيرًا ولم أستطع النوم تلك الليلة، فقررت النزول إلى حجرة الجلوس كي أشاهد التلفاز إلى أن يدركني النوم، وهناك وجدت على المنضدة كتابًا صغيرًا عنوانه "كتاب مالوش اسم"، ومؤلفه "أحمد العسيلي". لم أشك أنه أحد كتب سعيد التي يشرع بقراءتها ثم ينساها هنا وهناك بين حين وآخر.

أمسكته وشرعت بتصفحه كيفما اتفق من باب الفضول؛ فصادفني هذا الكلام:

" فيه نوع رائع بقى من أنواع الاستسلام بس عيبه انه ممكن يودي في ستين داهية؛ الاستسلام للحُب، تفضل تكابر كده شويَّة وتعمل فيها بتاع لحد ما تستسلممم. يا عيني على الاستسلام الجميل للحب.. وهو ممكن يوديك في داهية صحيح لكن فداه. مش مهم. المهم انك لو ما استسلمتلوش عمرك ما حتعرف طعمه إيه. استسلم استسلم، استسلمي، استسلموا جميعًا".

تقدمت في قراءة الكتاب فنمت على أريكة حجرة الجلوس ليسقط من بين يدي على الأرض دون أن أشعر. في اليومين التاليين ظلت مشاعري متأرجحة بين الخشية والرغبة في الإقدام، وفي اليوم الرابع دق موظف شركة الطرود السريعة جرس باب البيت قبل أن أخرج لعملي في الصباح ليسلمني طرداً مسطحًا باسمي. لم أستسلم

لمشاعر المفاجأة والفضول طويلاً وسارعت بفض غلاف الطرد لتواجهني لوحة زيتية رسمت عليها صورتي بعينين متفائلتين وابتسامة واسعة، وخلف اللوحة كانت هناك بطاقة سماويه أنيقة كُتب عليها بخطٍ جميل لم أنسَ اليد التي تتقن رسمه:

"أعترف أنني رجلٌ عنيد، ومن النادر أن أعتذر لإنسان، لكنني لم أستطِع نسيانك طوال الأيام الماضية، ولم أستطع إلا الاعتذار إليك، وسأعتذر ألف مرة إن كان هذا يجعلك تقبلين اعتذاري.

غداً الأربعاء هو آخر يوم للتسجيل في دورة الرسم الجديدة، إذا لم تأتِ قبل الإقفال في الساعة السابعة؛ سأعرف أنني فقدت رغبتك بي، وفقدتُ الأمل بعودتك، وسأحجز في صباح اليوم التالي تذكرة أغادر بها إلى فرنسا دون نية للعودة إلى هنا، لأن كل الأماكن التي ارتبطت بها،

بما فيها الشارع الذي يقع فيه بيت أعز أصدقائي، صارت تذكرني بك.

يوسف فريد"

الأربعاء؟! لكن اليوم هو الأربعاء!! المُكممة في داخلي تفك وثاقها وتنتصر.. سأذهب الآن وليس المساء.. المهم ما سيحدث اليوم وليس غدًا.. لست بحاجة إلى مليون اعتذار، ولا لأي اعتذار، التفاتة واحدة تكفي، ابتسامة واحدة تكفي.. لماذا يبدو الطريق إلى مرسمه طويلاً جدًا على غير المُعتاد؟!

دخلت المرسم بتهيب طفلة تدخل المدرسة للمرة الأولى، وهناك رأيته واقفًا مبديًا بعض التعليقات أمام لوحة ترسمها "سيرينا"، وما إن التفت إلي حتى أضاء وجهه وأشرقت عيناه بابتسامة لها اتساع الكون. اقترب مني وهو يقول بصوت خافت:

- كيف حالك؟

نظرت إلى عينيه العميقتين وأنا أقول لنفسي: "قوليها الآن.. قوليها له بسرعة.. إن لم تقوليها قد لا تتمكنين من قول شيء بعد.."..

أخيرًا أجبته بقلب مجنون الخفقات:

- أوحشتني كثيرًا.

شكر خاص لـ

مؤسسة "زيزفون" لإعدادات الطباعة والنشر على المراجعة اللغوية.

عن المؤلفة

- **زينب علي البحراني.**
- **كاتبة سعودية من مواليد "الخبر"، سكان مدينة "الدمام".**

المؤلفات:

- **"فتاة البسكويت" – مجموعة قصصية: البحرين ٢٠٠٨م**
- **"مذكرات أديبة فاشلة": شمس للنشر والإعلام/ القاهرة ٢٠١١م**
- **"على صليب الإبداع/ عندما يُفصح المبدعون عن أوجاعهم": شمس للنشر والإعلام/ القاهرة ٢٠١٢م**

- "هل تسمح لي أن أحبك؟"/ بين يدي القارئ.

للتواصل مع المؤلفة:

- بريد إلكتروني:

zainabahrani@gmail.com

- حساب تويتر:

https://twitter.com/zainabahrani

- صفحة فيسبوك:

http://www.facebook.com/pages/Zainab-AL-Bahrani-Official/197217537002537